

الحرب وأخلاقياتها في الإسلام
لفضيلة الدكتور: خالد بن محمد الشنير^(١)

المقدمة:

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على من بعثه الله
أمانا وسلاما للعالمين، وبعد:

إن استكشاف نظريات السلام والعلاقات الدولية لا بد أن يقوم
على معرفة السياسة الحربية التي تسير عليها أية أمة، وإن من التحذير
للعقول؛ أن نتكلم عن ديانة أو حضارة وُجدت وسادت ولم يكن في
تاريخها استعمال الحرب في غالب الأحيان، لكن يبقى أن التميز في
كيفية هذه الحروب، وفي مدى توافق البُعد الأخلاقي النظري مع
التطبيق الحربي الواقعي.

لقد أثار جماعات من الحانقين - قديما وحديثا - أن الإسلام
دينٌ لا يعرف السلام، وأن نبيه نبي السيف، وأنه لم ينتشر بفضل

(١) أستاذ مساعد في قسم الثقافة الإسلامية - كلية التربية - جامعة الملك سعود في
الرياض.

تعاليمه بقدر ما قام به من إكراه للدخول فيه! وهذه الأقوال على سطحيتها العلمية وكونها تدل تماما على جهل قائلها بتعاليم الإسلام؛ إلا أننا نجد أن لها رواجاً كبيراً حتى عند طائفة من المثقفين.

ونضيف أيضاً، أن الإسلام استأثر كثيراً بالحملة المثارة حول السلام والحرب فيه، بالرغم أن غيره من الأديان لم يكن أقل شأناً منه في هذه الناحية. واستجابة لذلك؛ فمن المهم أن تنحو الدراسات المعاصرة إلى ابتكار طرائق جديدة في سبيل بيان مفهوم الإسلام للسلام والحرب، وألا نكتفي بالموقف الدفاعي المعهود في كتاباتنا، ومن يتابع المشهد الفكري حول الإسلام في القرون الوسطى الأوروبية يلحظ وصفه بأبشع الصفات. ويصف "جير نوتر" هذه الحالة الغربية بقوله: (الشعار الذي يبدو أنه لا يمكن استئصاله، القائل بأن مقصد الإسلام الوحيد هو التوسع "بالنار والحديد"... مع ملاحظة أن أوضاع المسيحيين في حالة الفتح الإسلامي كانت في العادة أفضل بكثير من العكس، هو في الواقع حقيقة معروفة لا جدال فيها، ولكنها لم تتمكن فيما يبدو من فرض نفسها على الوعي الأوروبي. وتُمثل أسطورة "النار والحديد" أحد أوجه أهم فكرة نمطية ثابتة في إطار الشعائر العدائية تجاه الإسلام. أي إن الإسلام والمسلمين جميعاً يسمون أصلاً بالعنف والعدوانية، وبذلك فهم يمثلون تهديداً للحضارة الغربية، ولم يتغير شيء من هذه الصورة منذ القرون

الوسطى، برغم كافة الخبرات التاريخية^(١).

والكلام هنا واضح تماما ولا يحتاج إلى مزيد تعليق، إلا أنني أخالف في جزئية معينة؛ وهي ما آل إليه الحال في العصور الحاضرة مقارنة بالعصور الوسطى؛ حيث أصبح الحديث حول الإسلام هو حديث عن دين أرقى بكثير من ذلك "الإسلام" الذي تكلم حوله الأوروبيون منذ مئات السنين، وبدأت لغة الخطاب في التحول إلى مفهوم آخر أكثر إيجابية حول نبي الإسلام ﷺ (بغض النظر عن الكثير من الحوادث)، واعتبار الإسلام ديناً محترماً، وكما يعبر "مونتجمري وات" بأن على البقية التي لم تتعرف على الإسلام أن يدركوا (أن) الوحي الإسلامي "الرسالة الإسلامية" مسألة لا بد من تناولها بجدية، فالإسلام منافس قوي للمسيحية في قيادة عالم اليوم^(٢).

وإن كانت النظرة بارتياح من الإسلام ما زالت موجودة حتى الآن، إلا أنها بفضل تلك الدراسات والبحوث قد تحسنت، وإن كانت دون المستوى المطلوب، أو الذي يحكي الواقع الحقيقي^(٣).

(١) الإسلام والغرب الجوار المفقود: دراسات ألمانية، للمستشرق: جير نوتر، (بحث

مترجم ضمن كتاب: صورة الإسلام في التراث الغربي ص ٤٦، ترجمة: عيد ثابت).

(٢) الإسلام والمسيحية، مونتجمري وات، ص ٣٤ .

(٣) راجع: السيرة النبوية في دائرة المعارف البريطانية، وليد بن بليهش العمري،

ص ١٦ .

وكما أشرنا، فلا يمكن تصور أي مبدأ سلمي في أي ديانة أو حضارة من دون أن نتصور مع ذلك منهج الحرب والأخلاق الحربية، إذ لا يمكن بحال تصور مبدأ من غير استكشاف نقيضه. فلا معرفة للسلام من دون معرفة للحرب، ولا العدل بغير معرفة للظلم. ولذا؛ سيكون هذا البحث باكورة سلسلة من البحوث تتحدث عن الحرب في تعاليم الأديان، وخاصة: اليهودية، النصرانية، الإسلام، والعمل على إظهار المزايا المتعددة التي تتميز بها الحروب الإسلامية.

خطة البحث:

يحتوي البحث على مقدمة، وأربعة مباحث، وخاتمة:
المبحث الأول: الحرب في الإسلام ودوافعها، وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: هل شرع الإسلام الحرب؟
المطلب الثاني: حروب المسلمين كانت هجومية أم دفاعية؟
المطلب الثالث: المبادئ الحربية: آراء متعارضة وشهادات

منصفة

المبحث الثاني: خيارات الحرب في الإسلام، وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: الدخول في الإسلام، كأحد الخيارات السلمية
المطلب الثاني: فرض الجزية، كأحد الخيارات السلمية

الحرب وأخلاقياتها في الإسلام ————— د. خالد بن محمد الشنير

المطلب الثالث: إعلان الحرب

المبحث الثالث: جرائم الحرب، وفيه مطلبان:

المطلب الأول: التعاليم الإسلامية في منع الإبادة والإفساد

المطلب الثاني: معارضات حول موقف الإسلام من جرائم

الحرب والإبادات الجماعية

المبحث الرابع: أسرى الحرب

وختاماً: فإني أحمد الله على تيسير هذا البحث، وأخص بالشكر
عمادة البحث العلمي في جامعة الملك سعود لدعمها هذا البحث
وغيره من المشاريع البحثية.

المبحث الأول: الحرب في الإسلام ودوافعها

قبل الشروع في الحديث هنا ينبغي أن نحذر كثيرا ونحن نتحدث حول هذا الأمر الحساس؛ أن نحذر من التأثير كثيرا بلغة الحياة العصرية التي تقوم على تنازلات في دينها.

إن الدراسات المعاصرة (غير الإسلامية) حول الإسلام وإن تطورت إلى الأفضل في تصويرها لهذا الدين، فقد أصبحت الآن أكثر استكشافا لأوامر الإسلام، وبدا واضحا - وكثيرا ما قرأته - أن بعض الأحكام التي يستحي بعض المسلمين أن يُظهرها، لم تعد تلك الأحكام خافية على المتربصين، الذين أصبحوا ينقلون بشكل مباشر من كتب المسلمين، وذلك نظرا للثورة الثقافية التي جاءت بعد "الشبكة العالمية" وتدوين كتب الإسلام فيها.

ومن هنا فنحن نحاول صياغة المفهوم الحربي الإسلامي من خلال نصوصه المقدسة في القرآن والسنة النبوية، مسترشدين بأفعال الخلفاء الراشدين، وأقوال علماء الإسلام.

المطلب الأول: هل شرع الإسلام الحرب؟

إن الحقيقة التي لا مناص عن قولها هي أن الإسلام دين استعمل السيف كما استعمل الرحمة، ولم يكن القتال في الإسلام غاية نهائية بقدر ما كان مقصده هداية الشعوب وبسط النفوذ. وكان فيه رحمة كبيرة لغير المسلمين، بأن أنار لهم الطريق، ووضع عنهم شدة

الحرب وأخلاقياتها في الإسلام _____ د. خالد بن محمد الشنير

أديانهم، وقد قال ﷺ: «أنا محمد، وأنا أحمد، وأنا نبي الرحمة، ونبي التوبة، وأنا المقفى، وأنا الحاشر، ونبي الملاحم»^(١).

هذا التصور المقتضب حول الإسلام أثار جدلاً كبيراً حوله منذ قديم الزمان، واشتد هذا الجدل في العصور المتأخرة التي كثر الحديث فيها حول السلام، وأصبحت الديانة الإسلامية محل الاتهام في الوقت الذي استبعد فيه - لأسباب مجهولة - الحديث عن الأديان الأخرى التي لا تقل شأنًا في تعاليمها الحربية عن الإسلام.

وإذا تقرر بشكل قاطع أن الإسلام بحضارته الكبيرة لم يكن قاعدة شاذة عن الحضارات السابقة في كونه استعمل الحرب في بعض الجوانب، بقي أن نتكلم عن التميّز الخلقي الإسلامي في هذه الحرب، حتى أضحي ذلك مثيراً للإعجاب والتعجب من قبل كثير من غير المسلمين.

من الأشياء اللافتة التي تحدث في الزمن الحاضر أن عدداً ممن يتحدث عن حرب الإسلام وسيفه؛ يتحدث عنه من زاوية الأنظمة الدولية المعاصرة وتقنينها لمبادئ الحرب. ومع أن الإسلام قد توافق مع كثير من هذه القوانين؛ إلا أننا لا بد أن نؤكد على المثالية العالية في هذه القوانين، والتي أثبتت حروب القرن الأخير (قرن نشر ثقافة

(١) الشمائل المحمدية للترمذي، ص ٣٠٦، وصححه الألباني في مختصر الشمائل

السلام) فضلا عن غيره، أن تلك القوانين غير قابلة للاحترام، ولم تجد تطبيقا لها في تلك الحروب بشكل مُرضٍ، بينما الحرب الإسلامية كانت عقيدة يؤمن المسلمون الأوائل بتعاليمها، نظرية وتطبيقا.

وهنا يقال: إن القتال في الإسلام أو "الجهاد في سبيل الله" يُعد من أهم الأعمال التي يقوم بها المسلم لإرضاء الله، إذ فيه دفع النفس وتعرضها للهلاك، من أجل دين الله.

إن موضوع الجهاد -الذي ثار حوله كثير من النقاش والكتابات والمناظرات- يبقى فضله واضحا تمام الوضوح في نصوص القرآن الكريم والسنة النبوية، فلا مجال أصلا لإنكار الجهاد كأساس متين من أسس الإسلام، ولا يمكن لأحد (يصح أن يكون مسلما) أن يُشكك في تشريعه وأحكامه، وإن كان هذا التشكيك أصبح أمرا متوقعا في زمننا المعاصر الذي كثرت فيه الانتسابات للأديان على أنها قوميات. إن القرآن مليء بآيات الجهاد التي تجعل المسلمين يتوقون له، ويتشرفون بأن يكونوا من المجاهدين، ومن ذلك:

- ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ (١٦٩) فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةِ اللَّهِ وَفَضْلِهِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧١﴾ آل عمران: ١٦٩ - ١٧١

- ﴿فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا

الحرب وأخلاقياتها في الإسلام _____ د. خالد بن محمد الشنير

بِالْآخِرَةِ وَمَنْ يُقْتَلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿النساء: ٧٤﴾

- ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِآثَ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ التوبة: ١١١

وأما النصوص التي جاءت في أحاديث النبي ﷺ فهي كثيرة جدا، وسأذكر منها شيئا يسيرا مما ورد في الصحيحين، ومن ذلك:

- عن أبي هريرة ؓ قال: قيل للنبي ﷺ: ما يعدل الجهاد في سبيل الله عز وجل؟ قال: «لا تستطيعوه»، قال: فأعادوا عليه مرتين أو ثلاثا، كل ذلك يقول: «لا تستطيعونه». وقال في الثالثة: «مثل المجاهد في سبيل الله كمثل الصائم القائم القانت بآيات الله. لا يفتر من صيام وصلاة، حتى يرجع المجاهد في سبيل الله تعالى»^(١).

- ويقول ﷺ: «مثل المجاهد في سبيل الله - والله أعلم بمن يجاهد في سبيله - كمثل الصائم القائم. وتوكل الله للمجاهد في سبيله بأن يتوفاه أن يدخله الجنة، أو يرجعه سالما مع أجر أو غنيمة»^(٢).

- ويقول أيضا ﷺ: «لغدوة في سبيل الله أو روحه، خير من

(١) صحيح البخاري (٢٦٣٣)، صحيح مسلم (١٨٧٨) واللفظ له.

(٢) صحيح البخاري (٢٦٣٥).

الدنيا وما فيها»^(١).

- وعن عبد الله بن عمرو بن العاص أن رسول الله ﷺ قال:
«يغفر للشهيد كل ذنب إلا الدين»^(٢).

والأحاديث في فضل الجهاد في الإسلام كثيرة، وفي التنفير من
التقاعس عنه أيضاً كثيرة ووعيدها كبير، لا يسع المقام لإيرادها^(٣)،
وإنما المقصود بيان أن مسألة الحرب الجهادية التي كان يقودها النبي
ﷺ بأصحابه لم تكن شيئاً غير موجود، بل هي حقيقة تاريخية يقينية،
وكانت أمراً يتشرف به أهل ذلك الزمان ومن يسير على هديهم.

وهنا نتساءل: ما دمنا نعلم أن الإسلام استعمل الحرب؛ فما هي
الدوافع لهذه الحروب الإسلامية؟

قبل أن نشير إلى أسباب الحرب والجهاد في الإسلام، لا بد
من العلم أن الحرب في الإسلام تنطلق من منطلق مهم، مضبوط
بضابط عدم الإكراه على الدين: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ
الْغَيِّ﴾ البقرة: ٢٥٦. هذا من جهة.

ومن جهة أخرى؛ فالحرب في الإسلام هي حالة غير محببة
ولا مرغوب فيها، ولذا كان النبي ﷺ يقول لأصحابه: «أيها الناس

(١) صحيح البخاري (٢٦٣٩)، صحيح مسلم (١٨٨٠).

(٢) صحيح مسلم (١٨٨٦).

(٣) راجع: أهمية الجهاد في الدعوة إلى الله، علي العلياني، ص ٢٣٤-٢٥٣.

الحرب وأخلاقياتها في الإسلام _____ د. خالد بن محمد الشنير

لا تتمنوا لقاء العدو، وسلوا الله العافية»^(١).

نحن هنا لا نريد بسط الكلام حول مسألة دوافع الحرب الإسلامية، إذ إن هناك حديثاً طويلاً حوله، وهو أمر لا يكاد يخلو منه أي كتاب في موضوع العلاقات الدولية في الإسلام، أو الحرب والسلام فيه. إلا أن من المناسب أن نطلع على خلاصة حول طريقة الكتاب الإسلاميين في عرض تلك الأسباب التي تدور بين أمرين: الأول: رد العدوان.

الثاني: حمل الدعوة الإسلامية، على خلافٍ بينهم في المراد من ذلك، وهل يشمل فرض سلطان المسلمين على تلك الأمم لتأمين نشر الإسلام؟

والملاحظ للكتابات الإسلامية (المعاصرة) حول أسباب الحرب يمكن أن يستنتج ما يلي:

- هناك اتفاق على كون الاعتداء على المسلمين سبباً من أسباب القتال.

- الكثير من الكتاب ذكروا أن الاعتداء على أهل الذمة (من غير المسلمين) كالاغتداء على المسلمين، ومن لم يذكر ذلك كأنه اعتبر الاغتداء على المسلمين يشمل الاعتداء على أهل الذمة، لأنهم في حماية المسلمين، ويجب على الدولة الإسلامية الدفاع عن رعاياها

(١) صحيح البخاري (٢٨٠٤)، صحيح مسلم (١٧٤٢).

من أهل الذمة كما تدافع عن المسلمين^(١).

- بعض الكتاب ذكروا أن الاعتداء أو الظلم الواقع على الأمم المتحالفة مع المسلمين يعتبر سببا من أسباب القتال، بل يضيف بعضهم أن القتال يقوم لأي ظلم يواجهه حتى غير حلفاء المسلمين.

- الكثير من الكتاب حصروا مفهوم القتال من أجل حمل الدعوة الإسلامية - أو من أجل حماية نشر الإسلام - في حال حصول الاعتداء على حَمَلَة الدعوة أو المستجيبين لها، أو حالة منع دعوة غير المسلمين إلى الإسلام.

- القليل من الكتاب المعاصرين ذكروا ما مؤداه أن ضم الدول غير الإسلامية إلى الدولة الإسلامية وتطبيق النظام الإسلامي عليها - عند القدرة على ذلك - هو سبب من أسباب القتال المشروعة في

(١) راجع: الكافي في فقه ابن حنبل ٣٦٤/٤، الرسالة القبرصية (ضمن مجموع فتاوى ابن تيمية ٦١٨/٢٨).

وينقل القرافي عن ابن حزم إجماعا لعلماء المسلمين لا تجد له نظيراً عند أمة من الأمم، فينقل من كتابه "مراتب الإجماع" أن من كان في الذمة، وجاء أهل الحرب إلى بلادنا يقصدونه، وجب علينا أن نخرج لقتالهم بالكراع والسلاح ونموت دون ذلك صونا لمن هو في ذمة الله تعالى وذمة رسوله ﷺ، فإن تسليمه دون ذلك إهمال لعقد الذمة. وحكى في ذلك إجماع الأمة. (الفروق، للقرافي ٢٩/٣ - ٣٠).

أقول: هذا النص لم أعثر عليه في كتاب ابن حزم المطبوع "مراتب الإجماع"، وما في مضمون النص ليس بغريب في نصوص علماء الإسلام.

الحرب وأخلاقياتها في الإسلام _____ د. خالد بن محمد الشنير

الإسلام - كما هو المعروف من وجهة النظر الغالبة في الفقه الإسلامي - وذلك يكون بعد دعوة تلك الدول إلى الإسلام، أو الانضمام تحت سلطة الدولة الإسلامية.

هذا مجمل وخلاصة الأقوال التي ذكرها الكتاب الإسلاميون في مسألة أسباب الحرب^(١).

وتجنباً للتطويل في مسألة أسباب الحرب في الإسلام، يبقى أن هناك أسباباً موضوعية للحرب ولا ينازع عليها أحد، لكن يظهر أن هناك تفصيلات هي محل الخلاف الدائم، وهي الأخرى بالإشارة والبيان، بدل الاستغراق في ذكر أسباب يتفق عليها جميع البشرية، ويتضح الأمر أكثر في المطلب الثاني.

المطلب الثاني: حروب المسلمين كانت هجومية أم دفاعية؟

إن تناول هذه المسألة هو حديث عن باب واسع، وشائك في نفس الوقت، ويكثر فيه الخلاف، مما يؤكد المطالبة بوجود دراسات متخصصة، ليست مثل هذه الدراسة، بل لا بد من تدقيق واسع يجمع نصوص القرآن والسنة، وتطبيقاتها من خلال أفعال الرسول ﷺ والصحابة والتابعين، ويمكن تلخيص ذلك: من خلال السيرة النبوية،

(١) راجع: الجهاد والقتال في السياسة الشرعية، محمد هيكمل، ص ٥٨٥-٥٩٨، وقد نقل المؤلف الكثير من النقولات حول هذه النقطة، لا يتسع المقام لبسطها ولا يكاد يخلو منها مؤلف حول الحرب.

ومن خلال فتوحات دولة الخلفاء الراشدين. وبيان ذلك كما يلي:

أولاً: الحرب من خلال السيرة النبوية^(١):

إن كثيراً من مسائل القتال في الإسلام يحتاج إلى معرفة منهج نبي الإسلام ﷺ فيها. ومعلوم أن أوائل الغزوات كانت ضد العدو الأكبر للمسلمين وهم مشركو قريش.

فيجوز وصف السرايا والغزوات التي كانت تتعرض لقوافل قريش ونحوها بأنها كانت للدفاع ضد العدوان، كما يجوز وصفها بأنها بدء الكفار بالقتال.

فهي ضد العدوان باعتبار أسبقية قريش إعلان الحرب على

(١) راجع هذا في: المصدر السابق، ص ٥٠٦-٥٢٤.

وللعلم فهناك عدد من الدراسات التي تحدثت عن أحكام الحرب والجهاد في الإسلام، ولكن - في رأيي - أن أهم وأفضل هذه الكتب: (الجهاد والقتال في السياسة الشرعية)، لـ محمد خير هيكل، فهو ليس مجرد كتاب، بل هو موسوعة إسلامية في أحكام الحرب، بلغت صفحاتها ألفي صفحة إلا قليلاً. وهو مثال يستحق الشاء لما تكون عليه الدراسات العلمية العميقة، والتي لا يتضح من مؤلفها ميله المسبق إلى رأي في المسألة، أو عدم تحكمه بعواطفه فيها، بل يفسح المجال للقارئ بحرية أن يختار قولاً، مع جودة في حصر الأدلة وأقوال العلماء ومناقشتها.

وفي ظني أن مثل هذه الدراسة تحتاج إلى قرينة لها، وهي بحث هذه المسائل في كتب المصنفات والآثار والأجزاء التي ألقت في قضايا معينة، ككتب الأموال أو الخراج، وكتب البلدان أو الفتوح.

الحرب وأخلاقياتها في الإسلام _____ د. خالد بن محمد الششير

المسلمين في المدينة، ويصح وصف تلك السرايا والغزوات أيضا بأنها بدء من المسلمين للكفار بالقتال، باعتبار أن قريشا وإن عادت المسلمين واضطهدتهم لكنها لم تبدأ باستخدام الحرب العسكرية، بل كان المسلمون هم من بدأ بالتعرض لقوافل قريش، لكن لا يمكن أن يُسمى هذا بداية، حيث إن البداية لا يلزم منها أن تكون عسكرية، بل مجرد إعلان العداء والاضطهاد هو إيذان بالبدء للحرب.

وهكذا نجد الغزوات ضد قريش تتأرجح بين الحالة الدفاعية وبين ما يمكن أن نسميه إيذانا بأنه حالة من الهجوم.

كما نجد أيضاً ما يمكن تصنيفه كحرب هجومية، ومن ذلك حرب بني قريظة، لكنها كانت جزاء لجماعة يهودية على عدم الوفاء بالعهود والمواثيق، حيث نقضوا معاهدتهم مع المسلمين، وتكالبوا مع أعداء المدينة، مع سريان معاهدة الحماية المشتركة للمدينة بينهم وبين المسلمين^(١). ومثل ذلك فتح مكة عندما نقضت قريش المعاهدة مع النبي ﷺ^(٢). وعلى هذا فيمكن أن تُصنف هذه الحروب بأنها دفاعية.

(١) سيأتي تفصيل أكثر لذلك في المبحث الثالث/ المطلب الثاني: معارضات حول موقف الإسلام من جرائم الحرب/ تحت عنوان: المثال الثاني: قتل الذكور من يهود بني قريظة.

(٢) راجع: البداية والنهاية، ابن كثير ٢٧٨/٤، من رواية ابن إسحاق بسنده. وراجع للتوسع: السيرة النبوية، مهدي رزق الله، ص ٥٥٧ .

كما نجد أن هناك غزوات كخيبر وغيرها كان سببها إعداد الأعداء العدة والتأليب على المسلمين في المدينة^(١).

وتوسعت الحرب بشكل أكبر لتصل إلى حدود الجزيرة العربية، وذلك بحرب الروم وأعوانهم من القبائل العربية المسيحية، فقد قتل الروم رسول رسول الله ﷺ وقتلوا بعض المسلمين الجدد في تلك النواحي، وهذا يُصنف بأنه نوع من إعلان الحرب على المسلمين، ويظهر أنهم أصلاً لم يأبهوا بالعرب، لمعرفتهم بضعفهم السياسي.

وأما بعد نزول سورة براءة (التوبة) وتعييدها للعلاقات مع غير المسلمين؛ فقد بدأت المرحلة الجديدة حيث كان فيها إنذار "للمشركين في جزيرة العرب" ممن "نقضوا" معاهداتهم مع الرسول ﷺ وتخييرهم بين:

- الخضوع للنظام الإسلامي وبقائهم على الشرك مع دفع الجزية (على قول لقليل من أهل العلم)، أو الإسلام فقط مع عدم قبول الجزية منهم على (قول جماهير العلماء).

- أو القتال.

- أو مغادرة جزيرة العرب أو قتلهم حال الرفض.

لكن هناك المشركون الذين "لم ينقضوا" معاهداتهم مع دولة الإسلام في داخل الجزيرة العربية، فهذا يظهر من نصوص القرآن أن

(١) راجع تفصيلاً في: المجتمع المدني في عهد النبوة، أكرم ضياء العمري، ص ١٦٠.

الحرب وأخلاقياتها في الإسلام ————— د. خالد بن محمد الشنير

يُوفَى إِلَيْهِمْ عَهْدُهُمْ ﴿٤﴾ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿٤﴾ التوبة: ٤

لكن هل من الممكن إبقاء كيانهم بعد انتهاء المدة؟
لا بد أن يُعلم أن جزيرة العرب لها خصوصيتها الكبرى في تقبل دين آخر مع الإسلام، ولذا لا يمكن استبقاء أي كيان في هذه الجزيرة يقاوم الكيان الإسلامي، فهم بين الخضوع التام لدولة الإسلام، وهو يعني إسقاط كيانهم، أو رفضهم الخضوع التام وهنا يشرع القتال.

هذا على مستوى الأفراد؛ إذ نجد أن الإسلام استقر على ما أوصى به النبي ﷺ عند موته: «أخرجوا المشركين من جزيرة العرب، وأجيزوا الوفد بنحو ما كنت أجيزهم»^(١).

وفي حديث آخر: «لأخرجن اليهود والنصارى من جزيرة العرب حتى لا أدع إلا مسلماً»^(٢).

إذاً، فحال جزيرة العرب خاص من عموم الحرية الدينية، وليس

(١) صحيح البخاري (٢٨٨٨).

(٢) صحيح مسلم (١٧٦٧).

يصح الاكتفاء بدفع الجزية^(١).

والقول بأن مشركي العرب (أو حتى المشركين عموماً على قول للعلماء) كان لا يقبل منهم إلا الإسلام أو السيف؛ هذا لا يعني عند أصحاب هذا الرأي مباشرة القتال في حينه، وإنما يُعطون فرصة أربعة أشهر لينظروا في أمرهم، فإما أن يُسلموا أو يُغادروا بلد المسلمين. وهذه فرصة سانحة لهم في التفكير حول مصيرهم.

ثانياً: الفتوحات من خلال دولة الخلفاء الراشدين^(٢):

في الحقيقة لا يمكن الفصل تماماً بين المنهج النبوي والمنهج الراشدي في تاريخ الإسلام (بخلاف الدول التي جاءت بعد ذلك)^(٣).

(١) سيأتي الحديث عن أقوال العلماء فيمن تؤخذ منه الجزية، في المبحث الثاني/ المطلب الثاني: فرض الجزية، كأحد الخيارات السلمية/ تحت عنوان: أهل الملل الذين تؤخذ منهم الجزية.

(٢) راجع هذا في: الجهاد والقتال في السياسة الشرعية، محمد هيكمل، ص ٥٧٠-٥٧٦.

(٣) عندما نتكلم عن الإسلام في جانبه السياسي والذي كان يمثل الإسلام الشرعي؛ فهو يتركز أكثر ما يتركز في عهد الخلفاء الراشدين الأربعة (أبو بكر، عمر، عثمان، علي) ؓ، ولذا يرى عموم المسلمين أن تشريعاتهم السياسية كانت -في الجملة- تمثل تشريعات للدول الإسلامية بعدها. وأما ما بعد الخلفاء الراشدين فليس هناك تزكية عامة لهم، فمنهم الصالح ومنهم غير ذلك، بل منهم من لا يمثل الإسلام في نظر علماء المسلمين.

الحرب وأخلاقياتها في الإسلام _____ د. خالد بن محمد الشنير

حيث كان الخلفاء الراشدون يسرون على ما كان يسير عليه نبيهم ﷺ، ولم يخالف في هذا الاعتقاد إلا بعض الفرق الإسلامية الشاذة عن

وهذا التفريق اهتدى له بعض المستشرقين، وبعضهم ضل عنه، ولذا نجد أن الجهل بهذا التقسيم يُفرز لنا أخطاء في معرفة موقف الإسلام من عدد من القضايا. فنجد مثلاً بعض المستشرقين يتحدث عن "إكراه ديني" مارسه بعض المسلمين إما من جهة إكراه غير المسلمين على الإسلام، كما حصل في عهد الدولة الفاطمية، أو من خلال عدم رغبة بعض الخلفاء (غير الراشدين) بكثرة دخول غير المسلمين للإسلام، حتى لا تنقص الجزية وتقل أموال الدولة كما حصل في بعض الدول الإسلامية المختلفة. وهنا يتبين لنا التفريق بين أفعال رجل السياسة، وبين ما يمكن أن يُجعل من دائرة أحكام الإسلام، فالإكراه على الدين كما فعل بعض الفاطميين في فترة من الفترات، لا يمكن أن يكون ذلك مقبولا في منهج الإسلام كشرعية، ولذا فالشرعية ترفضه، لكن الجاهل بهذا الأمر لا يفرق بين الإسلام وبين أفعال المتسبين إليه.

ومن جهة أخرى نجد أن عدداً من المستشرقين والمفكرين قد يثني على السماحة والتعددية في الإسلام بدليل أن كثيراً من اليهود والنصارى كانوا وزراء وأناساً نافذين ولهم قيادات في الدولة الإسلامية (راجع مثلاً: قصة الحضارة، ول ديورانت ١٣/١٣٢، الحضارة العربية، جاك ريسلر، ص ١٥٤)، مع أن المنهج عند العديد من فقهاء المسلمين عموماً يمنع ذلك، بل جعلوا ذلك من رقة الدين التي كانت عند أولئك الخلفاء. قال الدردير المالكي: (وأما البلد التي اختطها المسلمون كالقاهرة فلا يجوز الإحداث فيها باتفاق كما يأتي، لكن ملوك مصر لضعف إيمانهم وحبهم الفاني مكنوهم من ذلك) الشرح الكبير، الدردير ٢٠٤/٢ .

منهج الإسلام، والتي لم يُعرف قولها إلا بعد وفاة الخلفاء الراشدين.
لقد اتسم عصرهم باتساع الدولة الإسلامية بشكل واسع جدا
في سنوات قليلة. لكن التساؤل الذي يهمننا هنا: هل كانوا في حرب
دفاعية أو هجومية؟

إن الحديث حول هذه المسألة يطول وفيه خلاف مُتشعب،
لكن لا يمكن أن يُفصل عما قبله في زمن النبوة، ويمكن إيجاز ذلك
بما يلي:

أ- الدول المجاورة لدولة الإسلام لم تشن حربا فعلية على
المسلمين، بما يستدعي الجيوش الإسلامية أن ترد على ذلك بحجة
الدفاع ضد هذا العدوان.

إلا أن هذه الدول المجاورة في الحقيقة كانت في حالة "إعلان
حرب" منذ زمن النبي ﷺ بمبادأة منهم، ولم يُعقد بين المسلمين وتلك
الدول معاهدة سلام تُلغي حالة الحرب السابقة.

ب- لا نلاحظ من خلال الصور التي سجلت ما كان يجري
على جبهات القتال أن المسلمين عللوا هجومهم على دول الجوار
بوجود حالة للحرب التي سبق أن أعلنتها فارس والروم ضد
المسلمين. وقد كان السؤال يوجه صراحة للمسلمين: ما الذي جاء
بكم؟

كان هذا هو سؤال الفرس للقائد المسلم "ربيعي بن عامر"،
الذي لم يكن جوابه؛ أن فارس ابتدأت القتال ونحن ندافع عن أنفسنا،

بل كان جوابه: (الله ابتعثنا، والله جاء بنا لنخرج من شاء، من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام. فأرسلنا بدينه إلى خلقه لندعوهم إليه، فمن قبل منا ذلك قبلنا ذلك منه، ورجعنا عنه، وتركناه وأرضه يليها دوننا، ومن أبى قاتلناه أبدا، حتى نفضي إلى موعود الله)^(١).

لكن في الحقيقة قد يُقال: نعم حمل الإسلام هو الدافع الأصلي، ولكن لا بد قبل ذلك من وجود حالة الحرب المعلنة من الأعداء، كما هي حالة فارس والروم الذين أعلنوا الحرب في البداية. ويمكن الجواب: أن الاستناد لهذا الواقع "إعلان فارس والروم للحرب" له حظ من الوجاهة، لكن قد ينقضه أن بعض جبهات القتال لم تكن فيها حالة حرب مُعلنة سابقة. ومن ذلك أن أهل الحيرة كانوا أحرافا لمملكة فارس، لكن لما رأوا الجيوش الإسلامية، خرج أهل الحيرة من بلدهم مسالمين، وهو ما يُمثل الانفصال عن دولة فارس، فقد قال خالد بن الوليد لـ "عبد المسيح" أحد قادة الحيرة: (أَسَلِمْتُ أَنْتَ أم حرب؟ قال: بل سلم. قال: فما هذه الحصون التي أرى؟ قال: بنيناها للسفيه نحسه حتى يجيء الحليم فينهاه. ثم قال لهم خالد: إني أدعوكم إلى الله وإلى عبادته وإلى الإسلام، فإن قبلتم؛ فلكم مالنا وعليكم ما علينا، وإن أبيتم؛ فالجزية، وإن أبيتم؛ فقد جئناكم بقوم

(١) تاريخ الطبري ٤٠١/٢.

يحبون الموت كما تحبون أنتم شرب الخمر. فقالوا: لا حاجة لنا في حربك، فصالحهم^(١).

لكن في الحقيقة يمكن أن يُناقش هذا بأن أهل الحيرة لم يبادروا إعلان السلام إلا لما رأوا الجيش الإسلامي قد جاء إليهم، إذ لو أعلنوا ذلك قبل هذا لاستقام الاحتجاج.

ويمكن أن نُضيف هنا بأن هناك حالات أخرى تبين أن هدف المسلمين الدعوي لم يُشترط فيه إعلان حالة سابقة من الحرب، فنجد أن خالد بن الوليد قال لأهل فارس: (فادخلوا في أمرنا ندعكم وأرضكم، ونجوزكم إلى غيركم)^(٢).

فمن كان غير فارس الذين كان خالد يريد أن يجوزهم إليها؟ إن تلك البلاد الشرقية لم نسمع أنه قام بينها وبين المسلمين أي ارتباط. لكن هل يمكن القول بأنه أراد بغيرهم: دولة الروم؟ يمكن ذلك، مع أنها كانت غرب فارس، لكن اللفظ يحتمل.

ويبقى أن من أهم تلك الصور؛ بلاد النوبة في جنوب مصر، والتي يبدو أنها مستقلة عن دولة الروم، وهي لم تبدأ بإعلان حالة الحرب على المسلمين، ومع ذلك فقد توجهت لها الجيوش الإسلامية بعد فتح مصر، إلا أنهم وصلوا إلى حالة من إعلان السلام

(١) تاريخ الطبري ٣٠٨/٢.

(٢) المصدر السابق ٣٢١/٢.

الحرب وأخلاقياتها في الإسلام _____ د. خالد بن محمد الشنير

والاحترام المتبادل، من غير فرض جزية، وصالحهم والي مصر عبد الله بن أبي سرح (على هدية، عدة رؤوس منهم، يؤدونهم إلى المسلمين في كل سنة، ويهدي إليهم المسلمون في كل سنة طعاما مسمى، وكسوة من نحو ذلك)^(١).

وفي ختام هذه المسألة يقال: إن الحقيقة التاريخية تأمر الدولة الإسلامية بنشر الإسلام، إما بالدعوة أو بالحرب (حال رفضهم السماح بنشر الإسلام)، ويبقى الخلاف في المقصود بالدعوة هل هو فرض الهيمنة السياسية، أم مجرد عدم معاداة الدولة الإسلامية مع السماح للدعاة.

أيضا: إن ما سبق يؤكد لنا أن الدولة الإسلامية لها طلب الجزية، وأحيانا كانت تقوم بحالات السلم من غير مشاركة على الجزية، كما حصل مع بلاد النوبة مثلا^(٢).

المطلب الثالث: المبادئ الحربية: آراء متعارضة وشهادات منصفة!
هنا نصل إلى القضية الأساسية حول النظرية الحربية في الإسلام، حيث نجد الكثير من الكتابات التي تتحدث عن الإسلام بأنه دين السيف، وما زالت هذه الكتابات هي الرائجة في الدراسات

(١) السابق ٥١٦/٢.

(٢) راجع: تاريخ الطبري ٥١٦/٢.

الغريبة أو غير الإسلامية عموماً حول الإسلام.

وبالرغم من مبالغة المسلمين في الدفاع عن هذه القضية، الأمر الذي أدى إلى إنكار بعضهم لحقائق تاريخية ثابتة في الإسلام! فنحن لا يمكننا أن ننكر أن تلك الفتوحات الإسلامية كانت بالسيف، والتي كانت -ولا شك- أحد أسباب انتشار الإسلام؛ إلا أننا لا بد أن نشير إلى أن هذه الحروب لم تكن أمراً تفرد به الإسلام عن غيره من الديانات والحضارات، بل هو فاتح، لكنه من نوع أخلاقي، رسم منهجية حربية جديدة على التاريخ أجمع، وهو الأمر الذي يتميز به سيف المسلمين عن غيرهم. وفي الوقت نفسه لم يكن السيف هو الذي أدى إلى انتشار الإسلام بشكل سريع جداً، إذ كانت تعاليمه السمحة ماثراً إعجاب الأمم المغلوبة، كما سيأتي تفصيله.

ومع هذه السماحة فإن ذلك لم يبقَ لكثير من الدارسين لعلوم الإسلام، إما جهلاً بحقيقته، وإما استعمالاً لمناهج غير علمية مع الإسلام. ولذا ما زالوا يتحدثون على أن الإسلام هو دين الدم والسيف، ولم يكن هدفه إلا بناء امبراطورية عظيمة!

أولاً: الهجمة على الحرب الإسلامية

تقول المستشرقة الإسرائيلية "حافا لزروس" مكررة تلك الآراء غير الدقيقة حول الإسلام: (وكلنا يعرف أن الإسلام حاول نشر دينه بالقوة على وجه الخصوص، وإلى درجة كبيرة، ومن خلال رغبته في تخليص العالم من الضلال الذي يعيش فيه، ولم يستنكف عن

الحرب وأخلاقياتها في الإسلام _____ د. خالد بن محمد الشنير

استخدام أية وسيلة لنشر دينه، سواء بالقوة أم بالتبشير).
وتضيف قائلة: (لقد احتل الإسلام عالما كبيرا، ولكنه لم ينجح
في أسلمة كل السكان بالسرعة نفسها التي استولى بها على
الأرض)^(١).

وهذا النص ربما قد يستفز بعضا من المسلمين الذين لا يريدون
أن يسمعوا عن الإسلام كل ما يخالف التوجهات المعاصرة في
السلام، ونحن نقول إن هذا الرأي هو في الحقيقة مُجمل مُبهم، إلا أنه
يُساق في سياق ذم، وإلا فهناك عدد من المفكرين والعلماء الغربيين
وغيرهم أثنى على الفتوحات الإسلامية من خلال رحمتها وقدرتها
على استيعاب تعددية الشعوب، وسيأتي توضيح أكثر لذلك قريبا.
لكننا نجد آراء أكثر حدة من سابقها، وأكثر بُعداً عن الحقيقة،
حيث يقول "شالوم زاوى": (يفرق المسلمون بين دار الإسلام ودار
الحرب. ويجب أن تُسلم كل الشعوب بالسيف والجهاد إذا لم يقبلوا
دين محمد رسول الله طواعية)^(٢).

وتتحدث "أفيفا شوسمان" عن الحروب الإسلامية مع اليهود،

(١) أحاديث أخرى عن الإسلام (بالعبرية)، حافا لزروس ، ص ٥٢-٥٣ (نقلا عن:

الاستشراق الإسرائيلي في المصادر العبرية، محمد جلاء إدريس، ص ١٢٥-١٢٦).

(٢) مصادر يهودية في القرآن، ص ٢١، (نقلا عن: الاستشراق الإسرائيلي في المصادر

العبرية، محمد جلاء إدريس، ص ١٢٦).

بما يشير إلى حجم جهل هؤلاء بالواقع الحقيقي لموقف المسلمين من اليهود، فتقول: (...) وأعلنت الحرب الدموية كوسيلة لأسلمة كل السكان^(١).

أقول: وهذه الآراء حول أهداف الحروب الإسلامية، وأن المراد بها إجبار الشعوب على الإسلام؛ هي فكرة مرفوضة أصلاً من نصوص القرآن، والتي لا تجد لها مثيلاً لا في نصوص التوراة ولا في الإنجيل أو غيرهما. وهذا واضح في عدد من النصوص القرآنية، ومن ذلك: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعاً أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ يونس: ٩٩، وقوله: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ البقرة: ٢٥٦، وسورة كاملة تبين ذلك: ﴿قُلْ يَتَايَهَاتُ الْكَافِرُونَ ۖ (١) لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ (٢) وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٣) وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدْتُمْ (٤) وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٥) لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ (٦)﴾ الكافرون: ١ - ٦

وأما مسألة نشر الإسلام بالسيف فليس مما انفرد به الإسلام، بل المسيحية نُشرت بقوة السيف^(٢)، وفي التوراة اليهودية الأوامر بإبادة

(١) بشارة الإسلام (نقلاً عن: الاستشراق الإسرائيلي في المصادر العبرية، محمد جلاء إدريس، ص ١٢٦).

(٢) Stephen Neill: A HISTORY OF CHRISTIAN MISSIONS, p. ٧٩-٨٠, Penguin Books, London, ١٩٦٤

الحرب وأخلاقياتها في الإسلام _____ د. خالد بن محمد الشنير

الشعوب، ولا تكاد تجد أمرا واحدا بدعوتها للدين وحفظ دمائها بذلك^(١).

ثانيا: شهادات منصفة

نجد شهادات متعددة لعدد من المستشرقين تعترف بوجود مفاهيم مغلوطة عن دوافع الحرب في الإسلام، وتثني على السياسة الأخلاقية للحروب الإسلامية وأنها كانت عادلة، وفي هذا يقول "مونتجمري وات": (أضحى الغرض من الجهاد لا تحويل أهلها [أي البلاد المفتوحة] عن ديانتهم إلى الإسلام، وإنما إخضاعهم للحكم الإسلامي باعتبارهم من أهل الذمة)^(٢).

ويقول أيضا: (إن الجهاد قد أدى -عسكريا- إلى توسيع رقعة الدولة الإسلامية، غير أنه لم يؤد بصورة مباشرة إلى تحويل شعوب الأقطار المفتوحة عن دينها. وقد بقيت الإدارات المحلية لجماعات الذميين قائمة لم تُمس في معظم الحالات)^(٣).

نقلا عن: حقيقة التبشير، أحمد عبد الوهاب، ص ٩١-٩٣ .

(١) راجع في نصوص التوراة: تثنية ٧: ٢، و ١٦: ٧، و ٢٠: ١٤-١٨، خروج ٣٤: ١٢-١٣، وغيرها كثير.

(٢) فضل الإسلام على الحضارة الغربية (أو: تأثير الإسلام على أوروبا في القرون الوسطى)، مونتجمري وات، ص ١٥ .

(٣) المصدر السابق، ص ١٦ .

ويقول "إميل درمنغم": (وما أكثر ما في القرآن والحديث من الأمر بالتسامح، وما أكثر عمل فاتحي الإسلام بذلك، ولم يرو التاريخ أن المسلمين قتلوا شعباً، وما دخول الناس أفواجا في الإسلام إلا عن رغبة فيه)^(١).

ويقول "غوستاف لوبون" وهو الذي لا يجهل حضارة المسلمين، إذ هو متخصص فيها: (لم تقل براعة الخلفاء الراشدين السياسية عن براعتهم الحربية التي اكتسبوها على عجل، فقد اتصلوا منذ الوقائع الأولى بسكان البلاد المجاورة الأصليين الذين كان يبغى عليهم قاهروهم منذ قرون كثيرة... فكانت الطريق التي يجب على الخلفاء أن يسلكوها واضحة، فعرفوا كيف يحجمون عن حمل أحد بالقوة على ترك دينه، وعرفوا كيف يبتعدون -خلافاً لمزاعم الكثيرين- عن أعمال السيف فيمن لم يُسلم، وأعلنوا في كل مكان أنهم يحترمون عقائد الشعوب وعرفها وعاداتها)^(٢).

ويقول مؤكداً خطأ نظرية السيف الدموية التي يُتهم به الإسلام: (كان يمكن أن تُعمي فتوح العرب الأولى أبصارهم... وسيئوا معاملة المغلوبين، ويكرهوهم على اعتناق دينهم الذي كانوا يرغبون في نشره في العالم... ولكن العرب اجتنبوا ذلك، فقد أدرك الخلفاء السابقون

(١) حياة محمد، إميل درمنغم، ص ٣٣٠.

(٢) حضارة العرب، جوستاف لوبون، ص ١٣٤.

الحرب وأخلاقياتها في الإسلام _____ د. خالد بن محمد الشنير

الذين كان عندهم من العبقرية السياسية ما قلّ وجوده في دعاة الديانات الجديدة؛ أن النظم والأديان ليست مما يفرض قسراً، فعاملوا -كما رأينا- أهل سورية ومصر وإسبانية، وكل قُطر استولوا عليه بلطف عظيم، تاركين لهم قوانينهم ومعتقداتهم، غير فاضين عليهم غير جزية زهيدة في الغالب إذا ما قيست بما كانوا يدفعونه سابقاً، في مقابل حفظ الأمن بينهم.

فالحق أن الأمم لم تعرف فاتحين متسامحين مثل العرب، ولا دينا مثل دينهم، وما جهل المؤرخون من حكم العرب الفاتحين كان من الأسباب السريعة في اتساع فتوحهم، وفي سهولة اعتناق كثير من الأمم لدينهم ونظمهم ولغتهم، التي رسخت وقاومت جميع الغارات، وبقيت قائمة حتى بعد أن توارى سلطان العرب عن العالم^(١).

ويؤكد "توماس آرنولد" هذا المبدأ بكلام صريح وحوادث واضحة: (ومن هذه الأمثلة التي قدمناها آنفاً عن ذلك التسامح الذي بسطه المسلمون الظافرون إلى العرب المسيحيين في القرن الأول من الهجرة، واستمر في الأجيال المتعاقبة؛ نستطيع أن تستخلص بحق أن هذه القبائل المسيحية التي اعتنقت الإسلام إنما فعلت ذلك عن اختيار وإرادة حرة، وأن العرب المسيحيين الذين يعيشون في وقتنا

(١) المصدر السابق، ص ٦٠٥ .

هذا بين جماعات مسلمة لشاهد على هذا التسامح^(١).

وتشير الكاتبة البريطانية (الراهبة المسيحية سابقاً) "كارين آرمسترونج" إلى العقدة الغربية حول السيف الإسلامي، وتقول في ذلك: (إننا في الغرب بحاجة إلى أن نخلّص أنفسنا من بعض أحقادنا القديمة، ولعل شخصاً مثل محمد ﷺ يكون مناسباً للبدء! فقد كان رجلاً متدفق المشاعر... وقد أسس ديناً وموروثاً حضارياً لم يكن السيف دعامة، برغم الأسطورة الغربية، وديناً اسمه الإسلام؛ ذلك اللفظ ذو الدلالة على السلام والوفاق)^(٢).

إن من يعيش في هذا العصر قد يخيّل له أن منهج الإسلام في العلاقات الدولية وما يقتضيه من مبادئ حاكمة سواء في الحروب التي قامت، أو عمليات السلم، وما بين ذلك؛ منهج مثالي لا يقبل التطبيق في عالم الواقع، على الرغم من أن هذا المنهج كان يُطبق من جانب واحد، إذ طبقه المسلمون -كما يشهد تاريخهم- على مساحة واسعة في الزمان والمكان.

(١) الدعوة إلى الإسلام، توماس آرنولد، ص ٦٩-٧٠ (ط. ١٩٧١م)، وفي بعض الطبعات: ص ٥١، وبعضها: ص ٩٨-٩٩.

(٢) سيرة النبي محمد، كارين آرمسترونج، ص ٣٩٣، نقلاً عن: الأخلاق النبوية في الصراعات السياسية والعسكرية، محمد مسعد ياقوت، ص ١٦٥، الناشر دار الخراز.

جدة (منشور في موقع: نبي الرحمة):

www.nabialrahma.com

الحرب وأخلاقياتها في الإسلام _____ د. خالد بن محمد الشنير

وبالرغم من الظروف القاهرة التي كان يعيشها العرب في الجزيرة العربية، وظروف النشأة الصعبة للدولة الإسلامية، واضطرابها - مع عدم تكافؤ القوى - إلى أن تقاتل في وقت واحد في جبهتين أكبر قوتين في العالم في ذلك الوقت؛ لم تتمكن من الانتصار العسكري والسياسي فحسب، بل أمكنها تغيير حياة الشعوب بصورة جذرية وشاملة، حيث تحولت تلك الشعوب - خلال مدة قصيرة - إلى الإسلام، وقامت حضارة إنسانية من أروع ما شهده التاريخ من حضارات.

وحتى الآن لا يزال المؤرخون في حيرة لتفسير سر هذه الظاهرة المدهشة، التي تستعصي على التفسير الذي تعودته الناس لأحداث التاريخ، فكيف إذ أضيف إلى هذه؛ القيمة الممتحنة للعرب عند فارس والروم^(١).

وقد عبرت المستشرقة الإيطالية "لورافيشيا فاغليري" عن ذلك بقولها: (لا يزال العقل البشري يقف ذاهلاً دون اكتشاف القوى السرية التي مكنت جماعة من المحاربين الجفاة من الانتصار على شعوب متفوقة عليها تفوقاً كبيراً في الحضارة، والثروة، والخبرة، والقدرة على شن الحرب. ومن أدعى الأمور إلى الدهشة أن نلاحظ كيف استطاع

(١) التسامح والعدوانية بين الإسلام والغرب، صالح الحصين، ص ١٧٦.

أولئك الناس أن يحتلوا تلك المناطق كلها^(١).

وتقول أيضا متعجبة من الجاذبية التي كانت للإسلام التي تؤكد بطلان مقولة السيف: (كيف نفسر مواصلة الإسلام -على الرغم من الحرية الدينية الممنوحة في البلدان الإسلامية للمواطنين غير المسلمين، ومن فقدان أيما منظمة تبشيرية حقيقة- تقدّمه الحثيث في آسية وأفريقية في وجه الانحطاط العام الذي أصاب الفكرة الدينية في السنوات الأخيرة؟ إن أحدا لا يستطيع اليوم أن يزعم أن سيف الفاتح هو الذي يُمهّد السبيل أمام الإسلام، على العكس، ففي الأصفق التي كانت في يوم من الأيام دولا إسلامية، تولت مقاليد السلطة حكومات جديدة تنتسب إلى أديان أخرى، وعملت في أوساط المسلمين طوال فترات عديدة منظمات تبشيرية قوية، ومع ذلك فإن الحكومات وتلك المنظمات لم توفق إلى زحزحة الإسلام وإقصائه عن حياة الشعوب الإسلامية. أي قوة عجيبة تكمن في هذا الدين؟)^(٢).

ثالثا: المبادئ الحربية في الإسلام

عندما نتكلم عن حالة الحرب في الإسلام، فإننا نتكلم عن دين له قواعد قانونية ثابتة تحكمه، كان مصدرها القرآن والسنة النبوية، وقد كانت مُطبقة قولاً وعملاً. فلم تكن نظرية لا تقبل التطبيق، وهي في

(١) دفاع عن الإسلام، لورافيشيا فاغليري، ص ٢٢.

(٢) المصدر السابق، ص ٤٠.

الحرب وأخلاقياتها في الإسلام _____ د. خالد بن محمد الشنير

الوقت نفسه مبادئ أخلاقية لم يعرف التاريخ مثيلاً لها. ومن تلك المبادئ:

أولاً: أن يكون مقصد القتال خالصاً لله، لنشر الدين. والمبدأ الثاني: أن يكون هذا القتال صالحاً أخلاقياً وليس للجبروت والبطر. المبدأ الأول: أن يكون القتال في سبيل الله، ولإبلاغ دينه^(١).

والمراد بهذا أن يخلص المجاهد إلى أن تكون كلمة الله هي العليا، وأن ينتشر دين الله بين الشعوب. فالمصلحة الشخصية أو القومية لا تبرر الحرب، بل تجعل الحرب غير شرعية في حكم الإسلام.

وأهمية هذا المبدأ تظهر أن لفظ القتال أو الجهاد نادراً ما يرد في القرآن دون تقييده بأن يكون في سبيل الله، وأحياناً يكون مقروناً بالأمر بالتقوى.

إن أول ما أصّله الإسلام في أمر القتال؛ هو أن يكون لسبب مشروع ولمقصود حسن، وبهذا ألغى الإسلام جميع الحروب التي لا يقصد من ورائها إلا إظهار الشجاعة، أو كسب السمعة، أو الحصول على الأموال، أو تملك الأراضي، أو الحفاظ على العصبية الوطنية. فلا يُشرع القتال في الإسلام إلا لإعلاء كلمة الله والدفاع عن حوزة

(١) راجع هذا في: سماحة الأحكام الشرعية في علاقة المسلمين مع غيرهم، محمد نقي العثماني، ص ٣٠٩.

الإسلام والمسلمين، والدفاع عن النفس والأرض والعرض ضد الظلمة والمعتدين. والأحاديث النبوية في ذلك كثيرة، ومنها:
يقول أبو موسى الأشعري رضي الله عنه: جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم عليه وسلم فقال: الرجل يقاتل للمغنم، والرجل يقاتل للذكر، والرجل يقاتل ليرى مكانه. فمن في سبيل الله؟ قال: «من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله»^(١).

وفي حديث آخر: جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: أرأيت رجلاً غزا يلتمس الأجر والذكر ماله؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا شيء له»، فأعادها ثلاث مرات، يقول له رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا شيء له»، ثم قال: «إن الله لا يقبل من العمل إلا ما كان له خالصاً، وابتُغي به وجهه»^(٢).

فالحروب المنبثقة من معاداة على الدنيا، أو عصبية قومية أو قبلية، وهدفها العلو والمفاخرة والاستعباد التوسعي؛ تلك حروب لا علاقة لها بالجهاد في الإسلام: ﴿تِلْكَ أَلْدَارُ الْآخِرَةِ يُجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ القصص: ٨٣

والمقصود من الجهاد أمران:

الأول: الدفاع عن الإسلام أو الدولة الإسلامية إن هجم عليها

(١) صحيح البخاري (٢٦٥٥)،

(٢) سنن النسائي (٣١٤٠)، وجود إسناده ابن حجر في فتح الباري ٢٨/٦.

الحرب وأخلاقها في الإسلام _____ د. خالد بن محمد الشنير

عدو المسلمين يريد استباحتها، وإلى ذلك أشار القرآن بقوله: ﴿أَذِنَ
لِلَّذِينَ يَقْتُلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ الحج: ٣٩
وقوله: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقْتُلُونَكُم وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ
اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ البقرة: ١٩٠

الثاني: دفع الظلم والفتنة، وكسر شوكة الكفر التي تحول دون
الدعوة الإسلامية وقبولها، وإليه أشار القرآن الكريم بقوله
﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنَّ
أَنْتَهُوَ فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ الأنفال: ٣٩
وأيضا: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ
وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ
عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا يَزَالُونَ يُقْتَلُونَكُم حَتَّى يَرُدُّوكُم عَن
دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَعُوا﴾ البقرة: ٢١٧

وهنا إشكال أثير حول مقصد الإسلام من القتال مع كونه يبيح
المغانم لجنوده، بل هي مما يريده عدد من المقاتلين ، الأمر الذي
حدث فعلا، فكيف يكون ذلك في سبيل الله؟

نجد أن علماء الإسلام تحدثوا عن مثل هذه النقاط قبل أن تثار
في كتابات المستشرقين وغيرهم، ومن ذلك ما قال ابن حجر شارحا
قول النبي ﷺ الذي سبق قبل قليل: "من قاتل لتكون كلمة الله هي
العليا فهو في سبيل الله"، قال: (المراد بكلمة الله؛ دعوة الله إلى
الإسلام، ويحتمل أن يكون المراد أنه لا يكون في سبيل الله إلا من

كان سبب قتاله طلب إعلاء كلمة الله فقط، بمعنى أنه لو أضاف إلى ذلك سببا من الأسباب المذكورة أخلّ بذلك. ويحتمل ألا يخل إذا حصل ضمناً لا أصلاً أو مقصوداً، وبذلك صرح الطبري، فقال: "إذا كان أصل الباعث هو الأول لا يضره ما عرض له بعد ذلك"، وبذلك قال الجمهور.

لكن روى أبو داود والنسائي^(١) من حديث أبي أمامة بإسناد جيد قال: جاء رجل فقال يا رسول الله: أ رأيت رجلاً غزا يلتمس الأجر والذكر، ماله؟ قال: «لا شيء له» فأعادها ثلاثاً كل ذلك يقول: «لا شيء له»، ثم قال رسول الله ﷺ: «إن الله لا يقبل من العمل إلا ما كان له خالصاً وابتغي به وجهه».

ويمكن أن يحمل هذا على من قصد الأمرين معا على حد واحد، فلا يخالف المرجح...

والمطلوب: أن يقصد الإعلاء صرفاً، وقد يحصل غير الإعلاء وقد لا يحصل، ففيه مرتبتان أيضاً. قال ابن أبي جمرة: "ذهب المحققون إلى أنه إذا كان الباعث الأول قصد إعلاء كلمة الله لم يضره

(١) الحديث جاء عند النسائي كما سبق تخريجه قريباً، ولم أجده في سنن أبي داود، ولم أجد من عزاه لأبي داود في الكتب الجامعة لمرويات السنة، كجامع الأصول لابن الأثير، والجامع الكبير للسيوطي.

ما انضاف إليه" ^(١).

لذا نجد أن القرآن ذم المنافقين لكونهم لا يخرجون للجهاد إلا إن كان هناك مكاسب مادية يأخذونها من هذا القتال: ﴿أَنْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (٤١) لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَا تَبَعُوكَ وَلَكِنْ بَعَدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ (٤٢) التوبة: ٤١ - ٤٢

فقضية الحرب من أجل الغنائم في الإسلام قضية مرفوضة، وقد كان المنافقون يريدون الغنائم فحسب، والله يريد الجهاد في سبيله لنشر دينه، ولا مانع أن تؤخذ الغنيمة تبعا لذلك.

إن غزوات المسلمين في عهد النبوة والخلافة الراشدة لم يكن هدفها حمل المكاسب المادية إلى الدولة الإسلامية، يشهد لذلك تلك المحاوراة بين الصحابي "عبادة بن الصامت" وبين الحاكم المصري "المقوقس"، حيث يقول عبادة: (همتنا الجهاد في الله واتباع رضوانه، وليس غزونا عدوا ممن حارب الله لرغبة في الدنيا ولا حاجة للاستكثار منها، إلا أن الله عز وجل قد أحل ذلك لنا وجعل ما غنمنا من ذلك حلالا، وما يبالي أحدنا أكان له قناطير من ذهب أم كان لا يملك إلا درهما، لأن غاية أحدنا من الدنيا أكلة يأكلها، يسد بها

(١) فتح الباري، ابن حجر ٢٨/٦ - ٢٩.

جوعته ليلته ونهاره، وشملة يلتحفها، وإن كان أحدنا لا يملك إلا ذلك كفاه، وإن كان له قنطار من ذهب أنفقه في طاعة الله تعالى واقتصر على هذه بيده، ويبلغه ما كان في الدنيا، لأن نعيم الدنيا ليس بنعيم ورخاءها ليس برخاء، إنما النعيم والرخاء في الآخرة، بذلك أمرنا الله وأمرنا به نبينا وعهد إلينا ألا تكون همة أحدنا في الدنيا إلا ما يمسك جوعته ويستتر عورته، وتكون همته وشغله في رضاء ربه وجهاد عدوه.

فلما سمع المقوقس ذلك منه قال لمن حوله: هل سمعتم مثل كلام هذا الرجل قط! لقد هبت منظره، وإن قوله لأهيب عندي من منظره، إن هذا وأصحابه أخرجهم الله لخراب الأرض، وما أظن ملكهم إلا سيغلب على الأرض كلها^(١).

المبدأ الثاني: إصلاح طرق القتال، وعدم تجاوز ضرورات الحرب^(٢). وهذا هو المبدأ الأخلاقي الواضح التميز في تشريعات الإسلام الحربية. فمع كثرة ما يثير القرآن المسلمين للجهاد في سبيل الله، إلا

(١) النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، لابن تغري بردى الأتابكي ١١/١.

وراجع للتوسع في مناقشة أخذ الغنائم وإخلاص نية المجاهد: الجهاد والقتال في السياسة الشرعية، محمد هيكمل، ص ٥٦٢، وما بعدها.

(٢) راجع هذا في: العلاقات الدولية بين منهج الإسلام ومنهج الحضارة المعاصر، صالح الحصين، ص ٤١-٥١.

أننا نجد أنه يؤكد أيضا على مبادئ شريفة في هذه الحرب التي سيخوضها المسلمون مع أعدائهم. ولئن كانت تلك الأمم لا تعترف بمثل المبادئ الإسلامية، فالمسلمون لا بد أن يتمسكوا بها. ولذا نجد في هذه المسألة نصوصا متعددة تتحدث عن ابتكار إسلامي فريد لمبادئ القانون الإنساني الدولي، ذلك أن المسلمين وضعوا قواعد وضوابط تدل على عناية الفاتح المسلم بمبادئ الحرب.

من الأركان المهمة في الفتوحات الإسلامية "عدم تجاوز ضرورات الحرب"، وعندما يُقعد الإسلام لمبدأ المعاملة بالمثل كما في الآية الكريمة: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ﴾ النحل: ١٢٦، فإن هذا المبدأ "عدم تجاوز ضرورات الحرب" يُعد قيда مهما على قاعدة "المعاملة بالمثل"، إذ لا خيار للمسلم في عدم الالتزام بالمعايير الأخلاقية الإسلامية في معاملة العدو، وإن كان العدو لم يلتزم بها. ولا خيار للمسلم في عدم الوقوف عند حدود الله، وإن كان عدوه المحارب تجاوز هذه الحدود، فإذا مثل محاربو المسلمين بالقتلى؛ فلا يجوز للمسلمين معاملتهم بالمثل، وإذا قتل الأعداء نساء المسلمين وصبيانهم أو غير المقاتلين منهم؛ فلا يجوز للمسلمين أن يقتلوا نساء الأعداء أو صبيانهم أو غير المقاتلين منهم.

وقد أفاض المفسرون عند تفسيرهم للآية السابقة في ذكر ما

ورد من النصوص عن الرسول ﷺ وخلفائه تطبيقاً لهذه الآية^(١).

عن يحيى الغساني قال: كتبت إلى الخليفة الأموي العادل: عمر ابن عبد العزيز، أسأله عن قوله تعالى: ﴿وَقَتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَتِّلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ البقرة: ١٩٠، قال: (إِنَّ ذَلِكَ فِي النِّسَاءِ وَالذَّرِيَّةِ وَمَنْ لَمْ يَنْصِبْ لَكَ الْحَرْبَ مِنْهُمْ)^(٢). وروى عن ابن عباس في تفسير الآية نفسها: (لا تقتلوا النساء ولا الصبيان ولا الشيخ الكبير ولا مَنْ ألقى إليكم السِّلْمَ وكَفَّ يَدَهُ، فَإِنْ فَعَلْتُمْ هَذَا فَقَدْ اعْتَدَيْتُمْ)^(٣).

وفي تفسير الآية الكريمة: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا﴾ المائدة: ٢، قال ابن كثير: (معناها ظاهر، أي: لا يحملكم بغض قوم قد كانوا صدوكم عن المسجد الحرام، عن أن تعتدوا حكم الله فيهم، فتقتصوا منهم ظلماً وعدواناً، بل احكموا بما أمركم الله من العدل في حق كل أحد.. وهذه الآية كما سيأتي في قوله: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا أَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ المائدة: ٨، أي: لا يحملكم بغض

(١) سيأتي تفصيل الحديث في ذلك في المبحث الثالث/ المطلب الأول: التعاليم

الإسلامية في منع الإبادة والإفساد.

(٢) تفسير الطبري (جامع البيان) ٥٦٢/٣.

(٣) المصدر السابق ٥٦٣/١.

الحرب وأخلاقياتها في الإسلام ————— د. خالد بن محمد الشنير

قوم على ترك العدل، فإنَّ العدل واجبٌ على كلِّ أحدٍ لكلِّ أحدٍ في كلِّ حال. وقال بعض السلف: ما عاملت من عصي الله فيك بمثل أن تطيع الله فيه، والعدل به قامت السموات والأرض^(١).

وقال القرطبي في تفسير الآية [المائدة ٢] التي مرت قبل قليل: (ودلت الآية أيضاً على أن كفر الكافر لا يمنع من العدل عليه، وأن يقتصر بهم على المستحق من القتال والاسترقاق، وأن المثلة [التمثيل بجثث الأموات] بهم غير جائزة، وإن قتلوا نساءنا وأطفالنا، وغمونا بذلك؛ فليس لنا أن نقتلهم بمثله قصداً لإيصال الغم والحزن إليهم^(٢)). ويدل تاريخ الإسلام في كل العصور على أن المسلمين الملتزمين طبَّقوا هذا المبدأ دون استثناء.

هذا هو المفهوم الإسلامي الذي تصوره علماء الإسلام، وطبقه المسلمون في حروبهم.

المبحث الثاني: خيارات الحرب في الإسلام

ثمة تساؤل يكثر حوله البحث: هل كانت الحروب الإسلامية تُعطي مجالا أرحب وأوسع للأمم المغلوبة، أو أنها كانت تسير على سياسة دموية، تتقصد اجتياح الدول وليس هداية الشعوب؟

(١) تفسير ابن كثير ١٢/٢.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي (تفسير القرطبي) ١١٠/٦.

قبل الإجابة على هذا؛ أشير إلى أن الإسلام كغيره من الأديان والثقافات الواقعية قد شرع الحرب بأسبابها، وأيا كان الاختلاف في هذه الأسباب، فهي تبقى مشروعة، إلا أن تميّز الإسلام يظهر في الطرائق التي سلكها في ذلك.

وقد يكون مُستغرباً -عند كثير ممن يجهل حقائق دين الإسلام- أن قواعد القتال لم تكن متروكة لاجتهادات القواد السياسيين، بل منذ تشريع الجهاد في الإسلام تجد التوجيه القرآني والنبوي لما يجب أن يكون عليه المقاتل المسلم أثناء قتاله، بأن يكون هذا الجهاد وفق قواعد ثابتة لا تُغيرها العداوات أو الاعتداءات الخارجية. وهذه القواعد طالب بها القرآن في عدة مواطن:

﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ المائدة: ٢

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْصُرُونَ﴾ (٣٩) وَجَزَّوْا سَيِّئَةً سَيِّئَةً مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (٤٠) وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَٰئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ (٤١) إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَبَعُثُوا فِي الْأَرْضِ بُغْيَ الْحَقِّ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٤٢) وَلَمَنِ صَبَرَ وَعَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (٤٣) ﴿ الشورى: ٣٩ - ٤٣

هذه النصوص وغيرها كثير أصبحت مؤثرة في نفس المسلم الذي يرجو نصره دينه، وقد أثمر ذلك وجود منهج أخلاقي حربي، له

الحرب وأخلاقياتها في الإسلام _____ د. خالد بن محمد الشنير

قواعده ومنطلقاته التي لم يُعرف لها مثل قبل الإسلام، فهي ليست موغلة في المثالية لدرجة تصل إلى السلبية، وليست بشديدة شرسة لا ترحم النفس الإنسانية.

وقبل الحديث عن الخيارات الحربية الإسلامية؛ نُذكر هنا أن الحرب خيار مكروه في الإسلام، وهو مكروه من طبيعة النفس البشرية، خاصة إن كانت في حالة الضعف والخوف، كما أخبر القرآن بذلك: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كَرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ البقرة: ٢١٦

لذا فإن البعض يظن أن الحرب الإسلامية مبنية على طبيعة إسلامية في حب القتال، لكن عندما نتأمل الهدى النبوي نلاحظ خلاف ذلك، فقد كان النبي ﷺ يقول لأصحابه: «أيها الناس لا تتمنوا لقاء العدو وسلوا الله العافية»^(١).

قال النووي: (إنما نهى عن تمني لقاء العدو لما فيه من صورة الإعجاب والاتكال على النفس، والوثوق بالقوة، وهو نوع بغى، وقد ضمن الله تعالى لمن بُغي عليه أن ينصره. ولأنه يتضمن قلة الاهتمام بالعدو واحتقاره، وهذا يخالف الاحتياط والحزم. وتأوله بعضهم على النهي عن التمني في صورة خاصة وهي إذا شك في المصلحة فيه

(١) سبق تخريجه وهو في الصحيحين.

وحصول ضرر، وإلا فالقتال كله فضيلة وطاعة. والصحيح الأول، ولهذا تممه ﷺ بقوله ﷺ: «واسألوا الله العافية». وقد كثرت الأحاديث في الأمر بسؤال العافية، وهي من الألفاظ العامة المتناولة لدفع جميع المكروهات في البدن والباطن، في الدين والدنيا والآخرة^(١).

وكثيرا ما ظن بعض الجاهلين بأحكام الإسلام أن ليس ثمة خيار أبدا لتلك الشعوب المغلوبة إلا سيف الإسلام، وأن الإسلام في الأصل ما انتشر إلا بحد السيف^(٢). فهل كان السيف أحد الخيارات حقيقة؟

عندما نراجع أقوال النبي ﷺ في هذا الشأن نجد له توجيهاً واضحاً في هذا الموضوع، وهو قوله في وصيته قائد الجيش: «... وإذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى ثلاث خصال - أو خلال - فأيتهم ما أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم.. ادعهم إلى الإسلام فإن أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم.. فإن هم أبوا فسلهم الجزية، فإن هم أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم. فإن هم أبوا فاستعن بالله وقاتلهم...»^(٣).

(١) شرح النووي على صحيح مسلم ٤٥/١٢ - ٤٦.

(٢) سبق إشارة لذلك في: المبحث الأول/ المطلب الثالث: المبادئ الحربية: آراء متعارضة وشهادات منصفة/ تحت عنوان: الهجمة على الحرب الإسلامية.

(٣) رواه مسلم ١٣٥٦/٣ (٤٦١٩).

الحرب وأخلاقياتها في الإسلام ————— د. خالد بن محمد الشنير

وهنا نلاحظ أن هنا خيارين سلميين: (الإسلام، الجزية)، وخيار حربي واحد: (القتال). هذا الأمر دفع المؤرخ الإنجليزي "آرنولد توينبي" إلى القول بإعجاب: (لم يكن الاختيار بين الإسلام أو القتل، ولكن بين الإسلام أو الجزية، وتلك سياسة مستنيرة، أجمعت الآراء على امتداحها)^(١).

وستتناول هنا هذه الخيارات، التي تؤكد عمق الرحمة التي كان المسلمون يطالبون بها أثناء تطبيقهم تلك الخيارات.

المطلب الأول: الدخول في الإسلام، كأحد الخيارات السلمية
سبق الحديث عن أحد مبادئ الحرب في الإسلام وهو: "أن يكون القتال في سبيل الله ولإبلاغ دينه"^(٢). وكان نتيجة لذلك المبدأ أن كانت الفتوحات الإسلامية لا تُبادر بمبادأة الأمم بالقتل، لأن الهدف كان هداية الناس للخير والدعوة للدخول في الإسلام.
إن مبدأ الدعوة للإسلام ليس أمراً ترفيلاً يُعرض على الشعوب من باب إبراء الذمة، بل ركناً أصلياً وأميناً صادقة في حروب المسلمين مع غيرهم.

(١) مختصر دراسة التاريخ، آرنولد توينبي ٣٥٥/٢ .

(٢) سبق في: المبحث الأول/ المطلب الثالث: المبادئ الحربية: آراء متعارضة وشهادات منصفة/ تحت عنوان: المبدأ الأول: أن يكون القتال في سبيل الله.

إن الأصل في الحروب الإسلامية أنها وسيلة للدعوة وليست غاية في ذاتها، ولا يلجأ إليها إلا حين تفشل الدعوة أو يحول بينها وبين الناس حائل. لذا فالحرب تفقد شرعيتها إذا لم تسبقها تلك الدعوة، ولأن المقصود إزالة الشرك وتثبيت الإسلام، فإن تحقق دون قتال فهو المطلوب الذي أمر به القرآن^(١): ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ الإسراء: ١٥

- ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنتُ الْأَوَّلِينَ﴾ الأنفال: ٣٨
- ﴿فَإِذَا أَسْلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمَ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَأَحْصُرُوهُمْ وَأَقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ التوبة: ٥

وقد سبق معنا قريبا تأكيد النبي ﷺ على قواد الجيوش بابتداء الشعوب بالدعوة للإسلام، وعدم جعل الاجتياح والسلب هدفا لذاته: «... ادعهم إلى الإسلام، فإن أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم...».

يقول الصحابي ابن عباس رضي الله عنهما: (ما قاتل رسول الله ﷺ قوما حتى يدعواهم)^(٢). وهو أمر متأكد، خاصة عند من لم تبلغه دعوة الإسلام.

(١) العلاقات الدولية في الإسلام وقت الحرب، عبد العزيز صقر، ص ١٣.

(٢) مسند أحمد ٢٣١/١، وصححه الأرنبوط في تخريج المسند.

الحرب وأخلاقياتها في الإسلام _____ د. خالد بن محمد الشنير

ويذكر مؤرخو المسلمين القدماء تطبيقاً لقضية الدعوة قبل القتال، إذ ذكر المؤرخ "البلاذري" أنه لما استُخلف الخليفة الأموي العادل: عمر بن عبد العزيز، وفد عليه قوم من أهل سمرقند من بلاد المشرق، فرفعوا إليه أن "قتية" دخل مدينتهم وأسكنها المسلمين على غدر، [أي من غير دعوة]، فكتب عمر إلى عامله يأمره أن ينصب لهم قاضياً ينظر فيما ذكروا، فإن قضى بإخراج المسلمين أخرجوا، فنصب لهم قاضياً مسلماً، فحكم بإخراج المسلمين على أن يباذلوهم على سواء [أي إشعارهم بأن لا عهد بينهم]، فكره أهل مدينة سمرقند الحرب، وأقروا المسلمين فأقاموا بين أظهرهم^(١).

ولقد سجلت دواوين السنة النبوية حادثة تدفع المسلم لأخذ الحيطة والحذر الشديد في الحرب، وهي القصة التي يحكيها أسامة ابن زيد رضي الله عنه عن نفسه فيقول: (بعثنا رسول الله ﷺ في سرية ... فأدركت رجلاً فقال: لا إله إلا الله، فطعنته، فوقع في نفسي من ذلك، فذكرته للنبي ﷺ، فقال رسول الله: «أقال لا إله إلا الله وقتلته»؟ قال قلت يا رسول الله: إنما قالها خوفاً من السلاح. قال: «أفلا شققت عن قلبه حتى تعلم أقالها أم لا»، فما زال يكررها عليّ حتى تمنيت أني أسلمت يومئذ.

قال سعد [ابن أبي وقاص]: وأنا والله لا أقتل مسلماً حتى يقتله

(١) فتوح البلدان، البلاذري، ص ٤١١ .

ذو البطين - يعني أسامة - فقال رجل: ألم يقل الله: ﴿وَقَتْلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ﴾ البقرة: ١٩٣؟ فقال سعد: قد قاتلنا حتى لا تكون فتنة، وأنت وأصحابك تريدون أن تقاتلوا حتى تكون فتنة^(١).

ويأتي المقداد بن الأسود - وهو الذي سمع عن تشديد نبيه ﷺ في مسائل قتل الأنفس - فيسأله: أرايت إن لقيت رجلا من الكفار فقاتلني، فضرب إحدى يدي بالسيف فقطعها، ثم لاذ مني بشجرة فقال: أسلمت لله، أفأقتله يا رسول الله بعد أن قالها؟ قال ﷺ: «لا تقتله»، فقلت يا رسول الله: إنه قد قطع يدي ثم قال ذلك بعد أن قطعها، أفأقتله؟ قال ﷺ: «لا تقتله، فإن قتلته فإنه بمنزلك قبل أن تقتله، وإنك بمنزلته قبل أن يقول كلمته التي قال»^(٢).

لقد كان المغزى المهم في حروب محمد ﷺ هو أن يقول الناس: لا إله إلا الله، وهذا يظهر واضحا في أنه لم يُرد ملكا سياسيا، يفاخر به الملوك. فقد كان متواضعا جدا على عظمة ملكه، ويتحدث في ذلك عمر بن الخطاب ؓ عن حالة معيشة رسول الله ﷺ: (... وإنه لعلى حصير ما بينه وبينه شيء، وتحت رأسه وسادة... فرأيت أثر الحصير في جنبه، فبكيت، فقال ﷺ: «ما يبكيك»؟ فقلت يا رسول الله:

(١) صحيح البخاري (٦٤٧٨)، صحيح مسلم (٩٦).

وذو البطين: هو أسامة لكبر بطنه. انظر: شرح النووي على صحيح مسلم ١٠٤/٢.

(٢) صحيح مسلم (٥٩).

الحرب وأخلاقياتها في الإسلام ————— د. خالد بن محمد الشنير

إن كسرى وقيصر [ملكي الفرس والروم] فيما هما فيه، وأنت رسول الله! فقال: «أما ترضى أن تكون لهم الدنيا ولنا الآخرة»^(١).

وقد جرى فقهاء المسلمين القدماء على تأصيل هذه المبادئ وتطبيقها منذ وقت مبكر في تاريخ الإسلام. يقول الإمام محمد بن الحسن الشيباني: (ولو أن قوماً من أهل الحرب، بلغهم الإسلام ولم يدروا كيف هو، فغزاهم المسلمون فدَعَوْا إلى أن يُسلموا، فأبى الأمير الذي على المسلمين أن يجيبهم إلى ذلك حتى قاتلهم وظهر عليهم، فإنه ينبغي أن يعرض عليهم الإسلام، فإذا أسلموا خلى سبيلهم، وسلم لهم أموالهم وذرائعهم وأراضيهم؛ لأن القتال شرع لأجل الإسلام، على ما قال ﷺ: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله»، وهؤلاء لما سألوا الإسلام فقد رغبوا فيه، فكان يجب على الإمام أن يصف لهم الإسلام قبل المقاتلة حتى يسلموا، فإذا قاتلهم ولم يصف لهم الإسلام، فقد أخطأ فيه، فعليه أن يرجع عن خطئه فيعرض عليهم الإسلام بعد الظهور عليهم، فإن أسلموا صاروا كأنهم أسلموا قبل الظهور عليهم فبقوا أحراراً كما كانوا، وإن أبوا أن يسلموا جُعلوا ذمة»^(٢).

وينقل الشوكاني أقوال العلماء في حكم الدعوة قبل القتال

(١) صحيح البخاري (٤٦٢٩).

(٢) شرح السير الكبير، السرخسي ٢٢٢٧/٥

وأنها على ثلاثة مذاهب:

الأول: أنه يجب تقديم الدعاء للكفار إلى الإسلام، من دون فرق بين من بلغته الدعوة منهم ومن لم تبلغه.
والمذهب الثاني: أنه لا يجب مطلقاً.
المذهب الثالث: أنه يجب لمن لم تبلغهم الدعوة، ولا يجب إن بلغتهم، لكن يستحب.

ونقل الشوكاني عن ابن المنذر أن القول الثالث هو قول جمهور أهل العلم، وقد تظاهرت الأحاديث الصحيحة على معناه، وبه يجمع بين ما ظاهره الاختلاف من الأحاديث^(١).

أقول: وهذا التفريع والخلاف بين العلماء في المسائل المتعلقة بالمخالفين في الديانة لا يكاد يُعرف عند غير المسلمين، إذ لا نجد في تشريع ديني أو دنيوي أن تتوقف الجيوش الغازية من أجل مصلحة لا تحقق شيئاً مادياً لتك الدول.

- تسهيل وسائل الدخول في الإسلام:

عند ما نلاحظ سيرة نبي الإسلام في علاقاته مع غير المسلمين؛ نرى سعيه الدائم لهداية الناس. وقد سلك النبي ﷺ في تحقيق ذلك

(١) انظر: نيل الأوطار، الشوكاني ٥٣/٨، وراجع توسعا واستفاضة في أدلة العلماء ومناقشتها في كتاب الجهاد والقتال في السياسة الشرعية، محمد خير هيكل، ص ٧٧١.

الحرب وأخلاقياتها في الإسلام ————— د. خالد بن محمد الشنير

عدة طرائق. ومن الطرق التي كان يسلكها النبي ﷺ لهداية الشعوب؛ كثرة دفع الأموال لاستمالة قلوبهم للإسلام، مع أنه عاش فقيراً، ومات ﷺ ودرعه مرهونة عند يهودي لأجل دين كان عليه. وقد مر بنا قبل قليل كيف كان ينام على حصير يؤثر في جنبه، مما يدل على حياة الفقر التي كان يعيشها لنفسه.

عن أنس رضي الله عنه أن رجلاً سأل النبي ﷺ غنماً بين جبلين فأعطاه إياها، فأتى قومه فقال: أي قوم، أسلموا، فوالله إن محمداً ليعطي عطاءً ما يخاف الفقر. فقال أنس: إن كان الرجل ليسلم ما يريد إلا الدنيا، فما يسلم حتى يكون الإسلام أحب إليه من الدنيا وما عليها^(١).

وإن من تسهيل وسائل الدخول في الإسلام أن يكتفي المسلم في حربه مع غير المسلمين بأن يعلنوا شهادة التوحيد، فيُمنع المسلمون بعد ذلك من أي اعتداء عليهم، بل يكونون بذلك مثل المسلمين تماماً. إذ كانت هي الغاية التي يُريدها الإسلام بالضبط. وقد مر معنا قبل صفحتين حديث أسامة وحديث المقداد في ذلك.

لقد جعل الإسلام الاشتباه في إسلام أي شخص يُعد كفيلاً لعصمة دمه وماله حتى يتبين نقيض ذلك، وحول هذا المعنى جاء في القرآن الكريم: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَن ءَلْفَ إِلَيْنَا السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ

(١) صحيح مسلم (٢٣١٢).

الَّذِينَكَ فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِّن قَبْلُ فَمَنِ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿النساء: ٩٤﴾

جاء في سبب نزول الآية أنه مرّ رجل من بني سليم على نفر من أصحاب رسول الله ﷺ ومعه غنم له، فسلم عليهم، قالوا: ما سلم عليكم إلا ليتعوّذ منكم، فقاموا فقتلوه وأخذوا غنمه، فأتوا بها رسول الله ﷺ، فأنزل الله تعالى هذه الآية^(١).

قال ابن سعدي: (يأمر تعالى عباده المؤمنين، إذا خرجوا جهادا في سبيله، وابتغاء مرضاته أن يتبينوا، ويتثبتوا في جميع أمورهم المشتبهة... فإن الثبت في هذه الأمور، يحصل فيه من الفوائد الكثيرة، والكف عن شرور عظيمة... كما جرى لهؤلاء الذين عاتبهم الله في الآية، لما لم يتثبتوا، وقتلوا من سلم عليهم، وكان معه غنيمة له أو مال غيره، ظنا أنه يستكفي بذلك قتلهم، وكان هذا خطأ في نفس الأمر، فلهذا عاتبهم بقوله: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَن أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ﴾ أي: فلا يحملنكم العرض الفاني القليل، على ارتكاب ما لا ينبغي، فيفوتكم ما عند الله من الثواب الجزيل الباقي، فما عند الله خير وأبقى... ثم قال تعالى مذكرا لهم بحالهم الأولى، قبل هدايتهم إلى الإسلام: ﴿كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِّن قَبْلُ فَمَنِ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ أي:

(١) سنن الترمذي (٣٠٣٠)، وقال الترمذي: حسن.

الحرب وأخلاقياتها في الإسلام _____ د. خالد بن محمد الشنير

فكما هداكم بعد ضلالكم، فكذلك يهدي غيركم...
فإذا كان من خرج للجهاد في سبيل الله، ومجاهدة أعداء الله،
واستعد بأنواع الاستعداد للإيقاع بهم، مأمورا بالتبين لمن ألقى إليه
السلام، وكانت القرينة قوية، في أنه إنما سلم تعوذا من القتل، وخوفا
على نفسه؛ فإن ذلك يدل على الأمر بالتبين والتثبت، في كل الأحوال
التي يقع فيها نوع اشتباه، فيتثبت فيها العبد، حتى يتضح له الأمر،
ويتبين الرشد والصواب^(١).

وجاء عن علي [بن سهل] وابن المصفى: بعثنا رسول الله صلى
الله عليه وسلم في سرية فلما بلغنا المَغَارَ [موضع الغارة] استحثت
فرسي فسبقت أصحابي وتلقاني الحي بالرنين [أي: الصوت]، فقلت
لهم: قولوا لا إله إلا الله تُخَرِّزُوا [تحفظوا أنفسكم وأموالكم]،
فقالوها، فلامني أصحابي وقالوا: حرمتنا الغنيمة! فلما قدمنا على
رسول الله ﷺ أخبروه بالذي صنعت، فدعاني فحسن لي ما صنعت،
وقال: «أما إن الله قد كتب لك من كل إنسان منهم كذا وكذا»^(٢).
بقي هنا أن نشير إلى أن هذه النصوص هي التشريع الذي يُمثل

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبد الرحمن بن سعدي، ص ١٩٤ -
١٩٥.

(٢) سنن أبي داود (٥٠٨٠)، والحديث ضعفه الألباني في ضعيف سنن أبي داود،
ولكن معناه مما يشهد له نصوص الإسلام بشكل واضح، والآية التي قبله أيضا.

حقيقة الإسلام، وقد يحدث أحيانا من بعض أفراد الجيش ممن يريد الدنيا أو ممن يجهل بعض الأحكام، أو ممن يجتهد بما يخالف أحكام الإسلام؛ كل هؤلاء ربما وقعت منهم أخطاء تخالف مُراد الإسلام، ولذا نحن نورد أحداثهم لنعلم أنه مهما قيل ونُقل من تلك الأعمال المخالفة؛ فذلك ليس هو التمثيل الحقيقي والتشريعي في الإسلام.

- حرص الإسلام على دعوة جميع الأجناس:

ونختم الحديث في هذا الخيار (الدخول في الإسلام) بمسألة جديرة بالناية في معرض المقارنة بين منهج الإسلام وغيره، وهي أن الإسلام لا يُميّز -أبدا- على أساس عرقي أو غيره بين الشعوب الراغبة في الدخول فيه، فالجميع مدعوون -مهما بلغت عداوتهم للإسلام- إلى الدخول فيه، من غير وجود أي عقبات في ذلك. بل لقد تناسى النبي ﷺ كل كيد الأعداء والماكرين به أشد المكر، وقبلهم إخوة له في الإسلام! ونضع هنا مثالين فقط من أمثلة كثيرة ومتعددة يزخر بها دين الإسلام:

المثال الأول: كان فتح مكة هو إيذاناً بأعظم انتصار للإسلام ضد أكبر أعداء المسلمين، وهم مشركو مكة، الذين طاردوا النبي ﷺ وضربوه وأهانوه، وحاولوا قدر المستطاع قتله، حتى هرب منهم فاراً بدينه ونفسه. عندما انتصر عليهم ظن أهلها أنه سيبيدهم؛ لِمَا بدر منهم من الاضطهاد والتنكيل له ولأصحابه، لكنه تعامل مع الموقف بتعامل

الحرب وأخلاقياتها في الإسلام _____ د. خالد بن محمد الشنير

يُريد به رحمة بهم، فأول مبادرة للسلام هي قوله: «من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن ألقى السلاح فهو آمن ومن أغلق بابه فهو آمن»^(١).

ثم لما استتب له الأمر تماماً، خطب في الناس: «يا معشر قريش إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالآباء. الناس من آدم وآدم من تراب، ثم تلا هذه الآية: ﴿يَتَأْتِيَ النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاهُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿الحجرات: ١٣﴾، ثم قال: يا معشر قريش! ما تروني أني فاعل فيكم، قالوا: خيرا، أخ كريم وابن أخ كريم، قال: اذهبوا فأنتم الطلقاء»^(٢).

يلق المستشرق الأمريكي "واشنطن إيرفينج" على حالة الفتح: (كانت تصرفات الرسول ﷺ في مكة تدل على أنه نبي مرسل لا على أنه قائد مظفر. فقد أبدى رحمة وشفقة على مواطنيه، رغم أنه أصبح في مركز قوي. ولكنه توج نجاحه وانتصاره بالرحمة والعفو)^(٣). وكان هذا الموقف يتوافق وتوجيهات القرآن بعدم الزيادة في

(١) صحيح مسلم (١٧٨٠).

(٢) السيرة النبوية، ابن هشام ٧٣/٥-٧٤، وراجع الروايات والكلام على أسانيدنا في: السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية، مهدي رزق الله، ص ٥٦٩.

(٣) حياة محمد، واشنطن إيرفينج، ص ٢٢٩.

العدوان، والصفح عن المعتدين. يقول الصحابي أبي بن كعب^(١): لما كان يوم أحد أصيب من الأنصار أربعة وستون رجلاً ومن المهاجرين ستة، فيهم حمزة، فمَثَلُوا بهم، فقالت الأنصار: لئن أصبنا منهم يوماً مثل هذا لربينّ عليهم [نزيد في العقوبة]، قال: فلما كان يوم فتح مكة أنزل الله: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ﴾ النحل: ١٢٦

المثال الثاني: وفي فتح مكة استثنى النبي ﷺ أربعة رجال من العفو الشامل، إلا أربعة نفر وامرأتين، وقال: اقتلوهم وإن وجدتموهم متعلقين بأستار الكعبة: عكرمة بن أبي جهل، وعبد الله بن خطل، ومقيس بن صبابه، وعبد الله بن سعد بن أبي سرح^(٢).

نلاحظ أن هؤلاء بلغوا من العتو والطعن في دين الإسلام درجة كبرى، ما جعل النبي ﷺ يُهدر دماءهم، وقد عصم دماء غيرهم من المشركين. الأهم من ذلك أن اثنين منهم لم يُطبق عليهم هذا الحكم، وهما: عكرمة بن أبي جهل، حيث جاءت الروايات حول هؤلاء: (... وأما عكرمة فركب البحر فأصابته عاصف، فقال أصحاب السفينة: أخلصوا، فإن آلهتكم لا تغني عنكم شيئاً هاهنا،

(١) الحديث في: سنن الترمذي (٣١٢٩)، وقال: حسن غريب، وقال الحاكم في المستدرك (٣٣٦٨): حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي.

(٢) مستدرك الحاكم (٢٣٢٩)، وصححه ووافقه الذهبي.

الحرب وأخلاقياتها في الإسلام ————— د. خالد بن محمد الشنير

فقال عكرمة: والله لئن لم ينجني من البحر إلا الإخلاص، لا ينجيني في البر غيره، اللهم إن لك علي عهدا إن أنت عافيتني مما أنا فيه أن أتى محمدا ﷺ حتى أضع يدي في يده، فلاجدنه عفوا كريما، فجاء فأسلم. وأما عبد الله بن سعد بن أبي السرح فإنه اختبأ عند عثمان بن عفان، فلما دعا رسول الله ﷺ الناس إلى البيعة جاء به حتى أوقفه على النبي ﷺ، قال يا رسول الله بايع عبد الله، قال: فرفع رأسه فنظر إليه ثلاثا كل ذلك يأبى. فبايعه بعد ثلاث، ثم أقبل على أصحابه فقال: أما كان فيكم رجل رشيد يقوم إلى هذا حيث رأيته كففت يدي عن بيعته فيقتله، فقالوا: وما يدرينا يا رسول الله ما في نفسك، هلا أومأت إلينا بعينك، قال: إنه لا ينبغي لنبي أن يكون له خائنة أعين^(١).

وليس المهم هنا التفاصيل الدقيقة لمصير هؤلاء؛ إنما المراد الإشارة إلى سعة قبول النبي ﷺ لإسلام الشعوب حتى ولو أبدوا عداوة كبرى، فإن هذا لا يمنع أن يكونوا من المسلمين ويحسن إسلامهم. فعكرمة لما أسلم حسن إسلامه وأصبح كاتباً للوحي القرآني عند النبي ﷺ، وحسبك بها من فضيلة وقرب.
المطلب الثاني: فرض الجزية، كأحد الخيارات السلمية
الجزية: مال يؤخذ من غير المسلمين نظير السماح لهم بالبقاء

(١) سنن النسائي (المجتبى) (٤٠٦٧)، وصححه ابن الملقن في: البدر المنير ١٥٣/٩.

على دينهم والسماح لهم بالعيش كمواطنين؛ حقوقاً وواجبات، في المجتمع المسلم^(١).

من أوضح النصوص في موضوع الجزية؛ قول الله تعالى:

﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ، وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ التوبة: ٢٩

وقبل تفصيل الحديث عن موضوع الجزية، يحسن الإشارة إلى معنى هذه الآية والتي يرى فيها أهل الكتاب في زمننا أنها دليل على دعوة الإسلام إلى الإذلال والاحتقار.

(١) جاء في الموسوعة الفقهية، مادة: جزية: (وقد اختلفت وجهات نظر الفقهاء في تعريف الجزية اصطلاحاً تبعاً لاختلافهم في طبيعتها، وفي حكم فرضها على المغلوبين الذين فتحت أرضهم عنوة "أي قهراً لا صلحاً".

وعرّفها الحنفية والمالكية بأنها: "اسم لما يؤخذ من أهل الذمة، فهو عام يشمل كلّ جزية، سواء أكان موجبها القهر والغلبة وفتح الأرض عنوة، أم عقد الذمة الذي ينشأ بالتراضي".

وعرّفها الحنابلة بأنها: "المال المأخوذ بالتراضي لإسكاننا إياهم في ديارنا، أو لحقن دمائهم وذرائعهم وأموالهم، أو لكفنا عن قتلهم".

وعرّفها المالكية بأنها: "مال يؤخذ منهم على وجه الصغار كل عام، بدلا عن قتلهم، وإقامتهم بدارنا".

قال القليوبي: "تطلق - أي الجزية - على المال وعلى العقد وعليهما معا".

الحرب وأخلاقياتها في الإسلام ————— د. خالد بن محمد الشنير

وابتداءً، وكما مر بنا سابقاً، فإن الإسلام أكرمَ جنس الإنسان، وإن كان يرى أن المسلم خير من غير المسلم. ومما لا شك فيه أن غلبة المسلمين لغيرهم، وطلبهم الجزية؛ فيه إذلال لمن يدفعها، وهو ما يحصل في كل فترات التاريخ. والأمة التي لا تقبل الإسلام؛ جعل لها بدلاً من قتالها وإكراهها على الدين أن تدفع الجزية، وهذا في حقيقته ليس عزا للمغلوبين، لانتفاء الاختيار في الامتناع عنها إلا بحرب المسلمين. وهو الخيار الذي ربما لا تريده تلك الأمم.

وهنا نشير إلى معنى هذه الآية عند بعض علماء المسلمين^(١).

أما تفسير قوله: ﴿عَنْ يَدٍ﴾ ، فقال ابن حجر: (أي عن طيب نفس، وكل من أطاع لقاهرٍ وأعطاه عن طيب نفس من يد؛ فقد أعطاه عن يد. وقيل معنى قوله: ﴿عَنْ يَدٍ﴾ ، أي: نعمة منكم عليهم، وقيل: يعطيها من يده ولا يبعث بها)^(٢).

وأما الأمر بالصغار الوارد في قوله: ﴿وَهُمْ صَغُورٌ﴾ ، فهو معنى لا يمكن أن يتنافى مع ما رأيناه في أقوال النبي ﷺ من وجوب البر والعدل، وحرمة الظلم والعنت، وهو ما فهمه علماء الإسلام. ففسره الشافعي بأن تجري عليهم أحكام الإسلام، أي العامة منها، فالجزية علامة على خضوع الأمة المغلوبة للخصائص العامة للأمة

(١) راجع للتوسع: غير المسلمين في المجتمع المسلم، منقذ السقار، ص ٥٠.

(٢) فتح الباري ٢٥٩/٦.

الغالبية.

وأما ما نُقل عن بعض الفقهاء من صور في معنى الصغار؛ فهي مما استقبحه العلماء وأنكروه، ومن ذلك ما نقله "تقي الدين الحصني الشافعي" عن بعضهم: (وتؤخذ على وجه الصغار والإهانة؛ بأن يكون الذمي قائماً، والمسلم جالساً، ويأمره أن يخرج يده من جيبه، ويحني ظهره، ويطأ طئ رأسه، ويصب ما معه في كفة الميزان، ويأخذ المستوفي بلحيته، ويضرب في لهزمته، وفي مجمع اللحم بين الماضغ والأذن!)، ثم ذكر "الحصني" تعقيب "النووي" على ذلك بقوله: (قال الجمهور تؤخذ برفق كأخذ الديون. فالصواب الجزم ببطانها [أي تلك الصفات] وردها على من اخترعها، ولم ينقل أنه عليه الصلاة والسلام ولا أحد من الخلفاء الراشدين فعل شيئاً منها).

ثم نقل عن الرافعي قوله: (والأصح عند الأصحاب تفسير الصغار بالتزام أحكام الإسلام وجريانها عليهم، وقالوا: أشد الصغار على المرء؛ أن يُحكم عليه بما لا يعتقده، ويضطر إلى احتماله)^(١).

ولما ذكر ابن القيم صوراً شبيهة ذكرها الفقهاء، عقب بقوله: (وهذا كله مما لا دليل عليه، ولا هو مقتضى الآية، ولا نقل عن رسول الله، ولا عن الصحابة أنهم فعلوا ذلك. والصواب في الآية: أن الصغار هو التزامهم لجريان أحكام الملة عليهم، وإعطاء الجزية، فإن التزام

(١) كفاية الأخيار، تقي الدين الحصني ٥١١/١.

الحرب وأخلاقياتها في الإسلام _____ د. خالد بن محمد الشنير

ذلك هو الصغار^(١).

ولا يفوتني هنا الإشارة إلى أن هذه التفاسير لمفهوم الصغار في الآية تصلح أن تكون مثالا لما أشرت له مرارا عن منهج الانتقائية في دراسات الأديان، فهذه الصفات الغريبة التي ذكرها بعض الفقهاء موجودة في كتب فقهية معتمدة، فهل ذكُرُ الفقهاء لها يكون حاكما على منهج الاسلام؟

- دوافع فرض الجزية ولوازمها:

تُعد مسألة الجزية من أكثر المسائل المثارة حول قبول الإسلام للتعديدية داخل المجتمع المسلم، فعدد من المستشرقين الذين لم تخل دراساتهم من اتخاذ نظام الجزية ذريعة للتهجم على الدين الإسلامي^(٢). ولذا كان من المهم بسط الحديث حولها، وكيف أن المسلمين مارسوا فيها صنوفا غير معهودة من التسامح مع غير المسلمين.

ومن أهم المستشرقين الذين بذلوا جهودا كبيرة لمناقشة نظام الجزية عند العرب المسلمين خلال القرنين الأول والثاني من ظهور الإسلام: المستشرق الألماني "ج. فيلهاوزن"، والذي أصدر كتابا ضخما أسماه: "المملكة العربية وسقوطها".

(١) أحكام أهل الذمة، ابن القيم، ص ١٢٠-١٢١ .

(٢) راجع: الاستشراق الإسرائيلي في المصادر العبرية، ص ٢٠٦.

وعلى الرغم من البحوث القيمة التي تضمنها هذا الكتاب؛ فإن تحامله وغيره من المستشرقين على الدين الإسلامي وتعصبه لديانته، جعله يهاجم نظام الجزية، ويرى في المسيحيين الذين رفضوا الإسلام ودفعوا الجزية بأنهم شهداء للتعصب الإسلامي!

وعلى الرغم من وجود نظام الزكاة الواجب على المسلم دفعها؛ فإن المستشرقين عادة ما يتجاهلون هذا النظام في حديثهم عن الجزية، مع أن الزكاة مطلوبة من كل مالك للمال من المسلمين، حتى لو كان طفلاً.

إن نظام الزكاة يعد خير الوسائل لحل المشكلات الاقتصادية في المجتمع، ولكنها لا تُفرض إلا على المسلمين، ونظراً لأن فتوحات المسلمين كانت مصحوبة بإعطاء حرية الاعتقاد لأهل تلك البلاد؛ فلم يكن للمسلمين أخذ الزكاة من المسلم وترك غير المسلم، والذي لا تجب عليه الزكاة نظراً لعدم إسلامه.

ولما كان الإسلام يحترم الملكية الفردية احتراماً شديداً؛ فمعنى ذلك أن مَلَكَ الأراضي وأصحاب الثروات الذين يرفضون اعتناق الإسلام يصبحون في حالة مالية أفضل بكثير من حالة مواطنيهم الذين يهديهم الله للإسلام، حيث لن يدفع رافضو الإسلام شيئاً من الزكاة ما داموا غير مسلمين.

ومما لا مرأى فيه؛ أن مثل هذا الوضع يشجع الناس على عدم اعتناق الدين الإسلامي، هذا من جهة. ومن جهة أخرى؛ كان لزاماً

الحرب وأخلاقياتها في الإسلام _____ د. خالد بن محمد الشنير

على كل فرد أن يدفع للدولة ما يمكنه أن يُسهم به لسد النفقات الباهظة التي تحتاج كل هيئة حاكمة للقيام بالتزاماتها نحو المواطنين، سواء من ناحية المحافظة على الأمن، أم توفير نفقات الجيش، وما عدا ذلك من الخدمات العامة التي تلتزم بها الحكومة الإسلامية^(١).

ويحسن هنا الإشارة إلى أن الفقهاء المسلمين لم يتفقوا حول حقيقة الجزية؛ فمنهم من قال: هي عقوبة على الإصرار على الكفر. ومنهم من قال إنها عوض عن معوض (إما عوض عن النصرة، أو بدل عن العصمة أو حقن الدّم، وسكنى دار الإسلام).

ومنهم من قال إنها صلة مالية وليست عوضاً عن شيء؟^(٢) لكن ما يهمنا هنا في موضوع الجزية ما يتعلق بها من عقد الذمة الذي يُعطى لغير المسلمين، إذ إن الجزية في الإسلام ليست مسألة مال يؤخذ من غير المسلم، بل هو عقد ذمة يلتزم به المسلمون مع رعاياهم من الدول التي فتحوها، وهذا العقد له تبعات كثيرة، ومن أهم هذه التبعات؛ الدفاع عنهم ضد كل من يتعرض لهم في أموالهم أو أنفسهم، بظلم أو جور، حتى لو كان هذا الاعتداء من نفس دين

(١) الجزية في الإسلام، محمد كامل المحامي ص ٦ وما بعدها.

(٢) راجع: الموسوعة الفقهية، مادة: جزية، فقرة: ١٩، ومناقشة للأقوال في: أحكام أهل الذمة، ابن القيم، ص ١٠٥.

أهل الذمة^(١).

وهذه الأحكام ليست مسألة نظرية لم يكن لها تطبيق على الواقع، بل إن غالب هذه الأحكام عُرفت من خلال تطبيقات المسلمين لها في فتوحاتهم، نظرا لكونها أوامر شرعية في دين المسلمين، وليست منهجا سياسيا محضا.

ومما يؤكد هذا المنهج الإسلامي؛ أن المسلمين في عصر الخلفاء الراشدين - والذين يمثلون المنهج الإسلامي الذي جاء به نبي الإسلام ﷺ - كانوا يُوصون بأهل الذمة خيرا نظرا لما التزم به المسلمون من حمايتهم، وفي هذا نجد الخليفة الثاني من خلفاء الإسلام عمر بن الخطاب ؓ يوصي من سيكون خليفة بعده، وذلك في مرض موته، بقوله: (وأوصيه بذمة الله وذمة رسوله ﷺ أن يوفي لهم بعهدهم، وأن يقاتل من وراءهم، وألا يكلفوا فوق طاقتهم)^(٢).

وبهذه السياسة سار الفاتحون، وعلموا أن إعطاء الجزية له ضريبته على المسلمين، ولقد سجلت معاهدات المسلمين في ذلك أشياء غريبة جدا، لا يمكن توقُّع كونها بين جيش مهزوم وجيش منتصر. ومن ذلك قول الصحابي خالد بن الوليد ؓ في صلحه مع

(١) راجع: دواعي الفتوحات الإسلامية ودعاوى المستشرقين، جميل المصري،

ص ٨٣.

(٢) صحيح البخاري (١٣٢٨).

الحرب وأخلاقياتها في الإسلام _____ د. خالد بن محمد الشنير

أهل الحيرة من المسيحيين: (إني عاهدتكم على الجزية والمنعة....
فإن منعناكم فلنا الجزية، وإلا فلا، حتى نمنعكم)^(١).

ولما انسحب المسلمون من مدينة "حمص" في فتوحات الشام،
وكانت الحرب آنذاك مع القوات الرومية صاحبة القوة العسكرية، قام
المسلمون بمبادرة هي أغرب ما تكون في العمليات العسكرية، فقد
أعادوا الجزية لأهل حمص، مخالفين بذلك كل ما يتوقع الناس من
جند ينسحب من مدينة، ووقف أهلها مشدودين لذلك، فبين
المسلمون لهم الأمر، وقالوا: (شغلنا عن نصرتكم والدفع عنكم، فأنتم
على أمركم. فقال أهل حمص: لولايتكم وعدلكم أحب إلينا مما كنا
فيه من الظلم)^(٢).

وهذا ما تتابع على ذكره فقهاء الإسلام، وقاموا بالدعوة إليه
وتطبيقه.

إن هذه الجزية التي فرضها المسلمون لم تكن أمرا يشق على
غير المسلمين، حيث إنها بديل عن الدفاع عنهم (حسب رأي بعض
الفقهاء)، ولذا فقد كان المسلمون أحيانا في فتوحاتهم يُسقطونها فيما
لو حارب أهل تلك البلاد مع المسلمين ضد أعدائهم، كما فعل "عتبة
ابن فرق" مع أهل أذربيجان في معاهدته معهم، حيث قال: (هذا ما

(١) تاريخ الطبري (تاريخ الأمم والملوك) ٣١٩/٢ .

(٢) فتوح البلدان، البلاذري ص ١٤٣ .

أعطى عتبة بن فرقد عامل عمر بن الخطاب أمير المؤمنين أهل أذربيجان، سهلها وجبلها وحواشيها وشفارها وأهل مللها كلهم، الأمان على أنفسهم وأموالهم ومللهم وشرائعهم، على أن يؤدوا الجزية على قدر طاقتهم... ومن حشر منهم في سنة وضع عنه جزاء تلك السنة^(١).

وفي كتاب العهد الذي كتبه "سويد بن مقرن" في فتوحات الشرق الإسلامي أيام الخلفاء الراشدين، لمنطقة دهستان وجرجان: (إن لكم الذمة وعلينا المنعة، على أن عليكم من الجزاء في كل سنة على قدر طاقتكم، على كل حالم، ومن استعنا به منكم فله جزاؤه في معونته عوضاً من جزائه، ولهم الأمان على أنفسهم وأموالهم ومللهم وشرائعهم، ولا يغير شيء من ذلك)^(٢).

وفي عهد سراقه بن عمرو لأهل أرمينية: (هذا ما أعطى سراقه ابن عمرو عامل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب شهر براز وسكان أرمينية والأرمن من الأمان. أعطاهم أماناً لأنفسهم وأموالهم وملتهم؛ ألا يضاروا ولا يتتقضوا، وعلى أهل أرمينية... أن ينفروا لكل غارة، وينفذوا لكل أمر ناب أو لم ينب رآه الوالي صلاحاً، على أن توضع الجزاء عمن أجاب إلى ذلك، إلا الحشر، والحشر عوض من جزائهم،

(١) تاريخ الطبري ٥٤٠/٢.

(٢) تاريخ الطبري ٥٣٨/٢.

الحرب وأخلاقياتها في الإسلام _____ د. خالد بن محمد الشنير

ومن استغنى عنه منهم وقعد فعليه مثل ما على أهل أذربيجان من
الجزاء والدلالة والنزل يوما كاملا، فإن حشروا وضع ذلك عنهم^(١).

- أهل الملل الذين تؤخذ منهم الجزية:

هذه المسألة تغيب أو يندر الإشارة إليها في عدد من الكتابات
التي تكلمت عن السلام والحرب أو العلاقات الدولية في الإسلام!
ولكون الخلاف موجودا في كتب الفقهاء؛ فمن الحسن الإشارة إليه،
لأنه جزء من تراث علماء الإسلام، لنحاول الوصول فيه إلى الرأي
الصواب الذي يوافق الأدلة القرآنية والنبوية.

اختلف العلماء فيمن تؤخذ منه الجزية، ومُلخص ذلك يذكره
ابن القيم بقوله: (قال أحمد والشافعي: لا تؤخذ إلا من الطوائف
الثلاث التي أخذها رسول الله ﷺ منهم، وهم: اليهود والمسيحيون
والمجوس، ومن عداهم فلا يقبل منهم إلا الإسلام أو القتل).

وقالت طائفة: في الأمم كلها، إذا بذلوا الجزية قبلت منهم:
أهل الكتابين بالقرآن، والمجوس بالسنة، ومن عداهم ملحق بهم، لأن
المجوس أهل شرك لا كتاب لهم فأخذها منهم دليل على أخذها من
جميع المشركين، وإنما لم يأخذها ﷺ من عبدة الأوثان من العرب
لأنهم أسلموا كلهم قبل نزول آية الجزية [التوبة ٢٩]، فإنها نزلت بعد
[غزوة] تبوك، وكان رسول الله ﷺ قد فرغ من قتال العرب واستوثقت

(١) السابق ٥٤١/٢.

كلها له بالإسلام، ولهذا لم يأخذها من اليهود الذين حاربوه، لأنها لم تكن نزلت بعد، فلما نزلت أخذها من نصارى العرب ومن المجوس، ولو بقي حينئذ أحد من عبدة الأوثان بذلها لقبلها منه كما قبلها من عبدة الصلبان والنيران، ولا فرق ولا تأثير لتغليظ كفر بعض الطوائف على بعض.

ثم إن كفر عبدة الأوثان ليس أغلظ من كفر المجوس، وأي فرق بين عبدة الأوثان والنيران، بل كفار المجوس أغلظ، وعباد الأوثان كانوا يقرّون بتوحيد الربوبية وأنه لا خالق إلا الله، وأنهم إنما يعبدون آلهتهم لتقربهم إلى الله سبحانه وتعالى، ولم يكونوا يقرون بصانعين للعالم أحدهما خالق للخير، والآخر للشر، كما يقوله المجوس، ولم يكونوا يستحلون نكاح الأمهات والبنات والأخوات، وكانوا على بقايا من دين إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه.

وأما المجوس فلم يكونوا على كتاب أصلا، ولا دانوا بدين أحد من الأنبياء لا في عقائدهم ولا في شرائعهم، والأثر الذي فيه أنه كان لهم كتاب فرفع ورفعت شريعتهم لما وقع ملكهم على ابنته لا يصح البتة، ولو صح لم يكونوا بذلك من أهل الكتاب، فإن كتابهم رفع وشريعتهم بطلت، فلم يبقوا على شيء منها.

ومعلوم أن العرب كانوا على دين إبراهيم عليه السلام، وكانت له صحف وشرعة، وليس تغيير عبدة الأوثان لدين إبراهيم عليه السلام وشريعته بأعظم من تغيير المجوس لدين نبيهم وكتابهم، لو صح فإنه

الحرب وأخلاقياتها في الإسلام _____ د. خالد بن محمد الشنير

لا يعرف عنهم التمسك بشيء من شرائع الأنبياء عليهم الصلوات والسلام، بخلاف العرب، فكيف يجعل المجوس الذين دينهم أقبح الأديان أحسن حالا من مشركي العرب. وهذا القول أصح في الدليل كما ترى.

وفُرق طائفة ثالثة بين العرب وغيرهم فقالوا: تؤخذ من كل كافر إلا مشركي العرب^(١).

- التيسير في أخذ الجزية وتقليل الأصناف المأخوذة منهم:

من المهم أيضاً أن تعلم أن هذه الجزية تقع على المقتدر من غير المسلمين، ولذا فقد كان المسلمون لا يأخذونها من المرأة ولا الطفل، وحتى الرهبان المعزولين في معابدهم، ولم تكن تؤخذ من الشيوخ العاجزين، ولم تكن هذه الجزية مرتفعة بحيث لا يقدر عليها الرجال، كانت ديناراً أو دينارين، وقد تصل في بعض دول الإسلام - بعد عهد الخلفاء الراشدين - إلى أربعة دنانير. وفي ذلك يقول "دريبر" في كتابه "المنازعة بين العلم والدين": (إن المسلمين ما كانوا يتقاضون من مقهوريههم إلا شيئاً ضئيلاً من المال، لا يقارن بما كانت تتقاضاه

(١) زاد المعاد في هدي خير العباد، لابن القيم ٩١/٥ .

وقد فصل القول بشكل أوسع في كتابه الآخر: أحكام أهل الذمة، ص ٨٧.

منهم حكوماتهم الوطنية^(١).

قال ابن قدامة: (ولا جزية على صبي ولا زائل عقل ولا امرأة، لا أعلم بين أهل العلم خلافا في هذا، وبه قال مالك و أبو حنيفة وأصحابه و الشافعي و أبو ثور. وقال ابن المنذر: ولا أعلم عن غيرهم خلافهم)^(٢).

وقال ابن القيم: (ولا جزية على شيخ فان ولا زمن^(٣) ولا أعمى ولا مريض لا يرجى برؤه بل قد أيس من صحته، وإن كانوا موسرين، وهذا مذهب أحمد وأصحابه وأبي حنيفة ومالك والشافعي في أحد أقواله، لأن هؤلاء لا يقتلون ولا يقاتلون فلا تجب عليهم الجزية، كالنساء والذرية)^(٤).

وهذه الأقوال لفقهاء الإسلام هي ما سار عليه المسلمون الأوائل في عهد الخلفاء الراشدين "تنظيرا وتطبيقا"، وهي تؤكد العناية بأهل الذمة، وأن الجزية عندما أخذت منهم فلها ما يقابلها من حقوق

(١) نقلا عن: روح الدين الإسلامي، عفيف طيارة ص ٤٠٦، وراجع: غير المسلمين، منقذ السقار، ص ٤٥.

(٢) المغني، ابن قدامة ٥٧٣/١٠.

(٣) الزمن: المريض مرضا طويلا. راجع: القاموس الفقهي، سعدي أبو حبيب، حرف (الزاي)، ص ١٦٠.

(٤) أحكام أهل الذمة ص ١٦١.

الحرب وأخلاقياتها في الإسلام ————— د. خالد بن محمد الشنير

كانت تجب على المسلمين لأهل الذمة، إذ لم يكونوا محل إهمال - كما يروج البعض لذلك - بل كانوا محل عناية عند المسلمين الأوائل، ولذا لما أبصر خليفة المسلمين الثاني عمر بن الخطاب رضي الله عنه شيخاً من أهل الذمة يسأل الناس، فقال له: مالك؟ قال: ليس لي مال، وإن الجزية تؤخذ مني، قال له عمر: ما أنصفناك! أكلنا شيتك، ثم نأخذ منك الجزية، ثم كتب إلى عماله ألا يأخذوا الجزية من شيخ كبير. قال: ثم أجرى عليه من بيت المال ما يصلحه^(١).

وعندما فتح خالد بن الوليد أجزاءً من الشام في زمن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كتب في ذلك عدة معاهدات مع أهل تلك البلاد، ومن ذلك ما كتبه لأهل الحيرة: (وجعلت لهم أيما شيخ ضعف عن العمل أو أصابته آفة من الآفات، أو كان غنيا فافتقر وصار أهل دينه يتصدقون عليه، طرحت جزيته، وعيل من بيت مال المسلمين، وعياله)^(٢).

وكان الخليفة الصالح: عمر بن عبد العزيز يطلب من واليه في البصرة: (وانظر من قبلك من أهل الذمة، قد كبرت سنه، وضعفت قوته، وولت عنه المكاسب؛ فأجر عليه من بيت مال المسلمين ما يصلحه)^(٣).

(١) الأموال لابن زنجويه (١٦٥)، الأموال، لأبي عبيد القاسم بن سلام (١١٩).

(٢) الخراج، لأبي يوسف، ص ١٥٥.

(٣) الأموال، لأبي عبيد القاسم بن سلام، (١١٩).

لقد كان خلفاء النبي ﷺ يراعون أحوال غير المسلمين من العدل وعدم الظلم، ولئن كانت الجزية مقداراً قليلاً من المال؛ إلا أن الخلفاء الراشدين كانوا يخافون من أي ظلم يحصل من أخذها. فلما جاء لعمر مال الجزية قال لمن جاء بها: إني لأظنكم قد أهلكتم الناس، قالوا: لا والله ما أخذنا إلا عفواً صفواً، قال: بلا سوط ولا نوط؟ قالوا: نعم، قال: الحمد لله الذي لم يجعل ذلك على يدي ولا في سلطاني^(١).

وكان الخليفة الرابع من خلفاء النبي ﷺ وهو علي بن أبي طالب رضي الله عنه يوصي أحد ولاته حول غير المسلمين من أهل الذمة، ويقول: (انظر إذا قدمت عليهم فلا تبين لهم كسوة شتاء ولا صيف، ولا رزقا يأكلونه، ولا دابة يعملون عليها، ولا تضربن أحداً منهم سوطاً واحداً في درهم، ولا تقمه على رجله في طلب درهم، ولا تبع لأحد منهم عرضاً في شيء من الخراج، فإنما إنما أمرنا أن نأخذ منهم العفو. فإن أنت خالفت ما أمرتك به؛ يأخذك الله به دوني، وإن بلغني عنك خلاف ذلك عزلتك)^(٢).

وعندما كانت تقع حوادث ظلم لأهل الذمة من ذوي النفوذ الجائر بين وقت وآخر - وهو ما حدث في بعض الدول التي تلت

(١) الأموال لأبي عبيد القاسم بن سلام (٩٩).

(٢) الخراج، لأبي يوسف، ص ١٧.

الحرب وأخلاقياتها في الإسلام ————— د. خالد بن محمد الشنير

عهد الخلفاء الراشدين الأربعة- كانت تلك المظالم دائما ما تُقابل بالرفض من الضمير الخلقي للمجتمع المسلم، وكان العلماء يجابهونها في تلك الأحيان. وعلى كل فليس هناك ما يدل على كونها أكثر أو أشيع من حوادث الظلم التي تقع من السلطات الجائرة على المسلمين أنفسهم^(١).

ولما قام أحد خلفاء بني أمية وهو "الوليد بن يزيد" بإجلاء نصارى قبرص مخافة أن يعينوا الروم، قام ضده علماء الإسلام. يقول في ذلك "إسماعيل بن عياش": فاستفزع ذلك المسلمون، واستعظمه الفقهاء، فلما ولي يزيد بن الوليد ردهم إلى قبرص، فاستحسن المسلمون ذلك من فعله، ورأوه عدلاً^(٢).

وهكذا فقد كان المسلمون يملكون قانونا واضحا في مجتمعاتهم التي كانت تحوي غيرهم، يعبر عن ذلك "غوستاف لوبون": (وكانت الطريق التي يجب على الخلفاء (الأولين) أن يسلكوها واضحة، فعرفوا كيف يحجمون عن حمل أحد بالقوة على ترك دينه، وعرفوا كيف يبتعدون عن أعمال السيف فيمن لم يسلم، وأعلنوا في كل مكان أنهم يحترمون عقائد الشعوب وأعرافها وعاداتها، مكتفين بأخذهم- في مقابل حمايتهم- جزية زهيدة تقل عما كانت تدفعه

(١) التسامح والعدوانية بين الإسلام والغرب، صالح الحصين، ص ١١٧ .

(٢) فتوح البلدان، البلاذري، ص ١٦١.

لسادتها السابقين من الضرائب)^(١).

المطلب الثالث: إعلان الحرب

إن خيار الحرب هو آخر الخيارات الإسلامية، بل قد يمكن لنا القول: إنه ليس من الخيارات؛ إذ الخيارات: أن يدخلوا في الإسلام ويكونوا كالمسلمين بلا أي تفرقة أو تمييز، أو أن يقبلوا بالجزية، وفي حال رفض الخيارات يُرجع إلى ضرورة الحرب لفرض الهيمنة، وهو الحل غير المرغوب فيه أصلاً.

أضف إلى ذلك أن حالة الحرب كانت هي السائدة قبل الإسلام، ولكنها حرب تختلف عن الحرب الإسلامية التي يصدق عليها بأنها أكثر الحروب أخلاقية، ولذا تقول المستشرقة الألمانية "زيغريد هونكه": (فما يدعيه بعضهم من اتهامهم [أي المسلمين] بالتعصب والوحشية إن هو إلا مجرد أسطورة من نسج الخيال، تكذبها آلاف من الأدلة القاطعة في تسامحهم وإنسانيتهم في معاملاتهم مع الشعوب المغلوبة)^(٢).

لقد لفت الإسلام أنظار كثير من غير المسلمين بمنهجيته في فتح البلاد الأخرى، يقول فليب حتى: (أبرز ما يلفت النظر في الفتوح العربية ليس تلك السرعة وذلك النظام اللذين تمت بهما - بغير دمار

(١) حضارة العرب، غوستاف لوبون، ص ١٣٤ .

(٢) شمس العرب تسطع على الغرب، زيغريد هونكه، ص ٣٥٧ .

الحرب وأخلاقياتها في الإسلام ————— د. خالد بن محمد الشنير

لا مبرر له إلا قليلاً - ولكن تلك السهولة التي انتقلت بها البلاد المفتوحة من حال الحرب إلى حال السلم، ومن التغلب إلى الإدارة^(١).

كيف تتصور من جيش خرج من دياره في حرارة صيف الجزيرة العربية، ويغزو أرضاً تصعب الحياة فيها! هل يمكن لجيش كهذا قد أنهكه التعب أن يتذكر - والحال هذه - تلك المبادئ الأخلاقية التي كان ينادي بها وقت السلم؟

إن هذه الحالة يصعب تصورهما في الحياة المعاصرة التي أصبح حديث السلام فيها يصم الآذان، ولكن ما إن يأتي الابتلاء تناسى كثير من الدول والشعوب هذه المبادئ الجميلة. وعندما نسلّم بأن للقيم الأخلاقية أثراً في العلاقات الدولية تواجهنا مشكلة أخرى، هي الغموض في تحديد الأخلاق الدولية، وكما يقول خبير العلاقات الدولية "جوزف فرانكل": (إن الذي يجعل الأخلاق الدولية على ما هي عليه من غموض هو أن معناها لم يحدد قط بوضوح، كما أنه لم يوجد بعد اتفاق بين المفكرين على العلاقة بين قواعد الأخلاق الفردية وقواعد الأخلاق الدولية. تذهب إحدى المدارس الفكرية متبعة في ذلك "ميكيافيلي" إلى إنكار الأخلاق الدولية كلية ... غير أن أغلب المفكرين يقرون بوجود الأخلاق الدولية، ولكنهم يميزون بينها

(١) الإسلام منهج حياة، فليب حتى، ص ١٦٢ .

وبين الأخلاق الفردية.

إن أي تحليل واقعي للعلاقات الدولية لا يسعه أن يتقبل دون مناقشة دعاوى رجال السياسة المكررة في كل البلدان بأنهم محكومون بالقيم الأخلاقية. إن من الواضح أن الأخلاق كثيراً ما تستدعى وبأسماء مختلفة لا شيء إلا لإضفاء قدر من الاحترام على مصالح الأنانية للدولة، كما أن اللجوء إلى الأخلاقية تبرير شائع مريح في يد الطرف الذي يعارض الحقوق القانونية لطرف آخر^(١).

وعندما نقارن ونتأمل في حال الفتوحات الإسلامية الأولى نجدها تنادي قبل الحرب بمبادئ أخلاقية، لم تمنعها الشدة والضيقة الذي تعيشها تلك المبادئ، كما سيأتي خلال عرض الموقف الإسلامي من القتل الجماعي وقتل الأمنيين من النساء والشيوخ والأطفال، والعناية بالأسرى^(٢).

ونورد هنا مثلاً واحداً من هذه النظرية الأخلاقية أثناء الحرب. فقد جاء في الروايات التي وصفت فتح المسلمين مدينة خيبر المحصنة بشكل متين، (فحاصرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم قريبا من عشرين ليلة، وكانت أرضا وخمة [رديئة] شديدة الحر، فجهد

(١) العلاقات الدولية، جوزيف فرانكل، ص ١٦٩، وللتوسع في منهجية العلاقات

الدولية، راجع: العلاقات الدولية، صالح الحصين، ص ١٣-٣٣.

(٢) سيأتي في المبحث الثالث والمبحث الرابع.

الحرب وأخلاقياتها في الإسلام _____ د. خالد بن محمد الشنير

المسلمون جهدا شديدا... وجاء عبد حبشي أسود ... فأقبل بغنمه حتى عهد لرسول الله صلى الله عليه وسلم، فلما جاءه قال: ماذا تقول، وماذا تدعو إليه؟ قال: «أدعو إلى الإسلام وأن تشهد أن لا إله إلا الله وأني محمد رسول الله وألا نعبد إلا الله»، قال العبد: فماذا لي إن أنا شهدت وآمنت بالله؟ قال: «لك الجنة إن مت على ذلك»، فأسلم. قال: يا نبي الله، إن هذه الغنم عندي أمانة، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أخرجها من عسكرنا وارمها بالحصباء، فإن الله سيؤدي عنك أمانتك، ففعل، فرجعت الغنم إلى سيدها».

وفي رواية قال هذا العبد: (يا نبي الله هذه الغنم عندي أمانة، قال: «أخرجها من المعسكر، ثم صح بها وارمها بالحصباء؛ فإن الله سيؤدي عنك أمانتك») وأعجبت رسول الله صلى الله عليه وسلم كلمته. أي كونه يحفظ الأمانة^(١).

لقد صرحت الروايات الصحيحة بأن الصحابة كانوا في هذه الغزوة في جهد جهيد، حتى اضطروا إلى ذبح الحُمُر وطبخها، ولكن مُنعوا من أكلها، حتى أكفؤوا القدور. وفي هذه الحالة الصعبة جاءهم هذا العبد بقطيع من الأغنام، وهي مملوكة لعدوهم، ومن أسهل الأشياء أن يعتبروا هذه من الغنائم المباحة لهم، لأنهم في حالة حرب، والراعي قد أسلم ودخل في جيش المسلمين، ولكن رسول الله ﷺ لم

(١) هذه الروايات جاءت في: دلائل النبوة، للبيهقي ٢٢٠/٤ .

يرض ذلك، لأن الراعي كان قد أخذ الغنم من مُلاكها بعقد أمانة، فأمره بردها لأصحابها، ولو كان ذلك في تلك الحاجة الشديدة^(١).

- محاولة تجنب الحرب قدر المستطاع:

المتمعن في سيرة نبي الإسلام ﷺ يلحظ عليه أمرًا مهمًا في علاقاته مع الشعوب الأخرى، ذلك أنه لا يجد طريقًا فيه هداية للناس للإسلام وابتعاد عن القتل والدماء إلا سلكه، ولو كان ذلك يتنافى أحيانًا مع سلطاته السياسية والاعتراض على فرضها، ذلك لأنه صاحب هدف ورسالة واضحة، وليس من أهداف هذه الرسالة الدعوة إلى الحرب والسيطرة على الأمم، والإعمال فيها قتلا وتشريدًا؛ بقدر ما هي فرض الإسلام لهداية الناس، ولذا كان يفضل (الوسائل السلمية لحل النزاعات)^(٢).

ومن تلك الطرق التي سلكها النبي ﷺ للابتعاد عن الحروب، ولحقن دماء الشعوب الأخرى؛ أنه كان أحيانًا يتعهد بإبقاء زعماء البلاد المحاربة في السلطة إن هم دخلوا في الإسلام، فقد كتب ﷺ إلى ملك عُمان كتابًا وبعثه مع عمرو بن العاص، وفيه: (بسم الله الرحمن الرحيم. من محمد بن عبد الله إلى "جيفر" و"عبد" ابني

(١) سماحة الأحكام الشرعية في علاقة المسلمين بغيرهم، محمد تقي العثماني،

ص ٣١٣-٣١٤.

(٢) راجع المصدر السابق، ص ٣١٥.

الحرب وأخلاقياتها في الإسلام _____ د. خالد بن محمد الششير

الجلندی: سلام على من اتبع الهدى، أما بعد: فإني أدعوكم بـدعاة الإسلام أسلما تسلما، فإني رسول الله إلى الناس كافة لأنذر من كان حيا ويحق القول على الكافرين، فإنكما إن أقررتما بالإسلام وليتكما، وإن أبيتما أن تقررا بالإسلام فإن ملككما زائل عنكما، وخيلي تحل بساحتكما وتظهر نبوتي على ملككما^(١).

وكتب النبي ﷺ إلى صاحب اليمامة هوزة: (بسم الله الرحمن الرحيم. من محمد رسول الله إلى هوزة بن علي، سلام على من اتبع الهدى. واعلم أن ديني سيظهر إلى منتهى الخف والحافر، فأسلم تسلم، وأجعل لك ما تحت يديك)^(٢).

وكان بعض المشركين يشترطون بعض الشروط التي يرون فيها ضمانا لتحقيق مصالحهم، مما يتعلق بإدارة شؤونهم وشؤون المنطقة التي يعيشون فيها، ولذا لما اشترط أهل ثقيف أن تكون الزعامة في قبيلتهم ولا يأتيهم أمير من خارجها؛ جعل لهم رسول الله ﷺ ذلك، وقال: (..وأن لا يؤمر عليهم إلا بعضهم على بعض)^(٣).

ولقد كانت نظرة الإسلام إلى الحرب أنها ضرورة لا يلجأ إليها إلا بقدرها، ومن الأفضل تجنبها، كما جاء في الحديث: «أيها الناس

(١) زاد المعاد، ابن القيم، ص ٦٩٣/٣.

(٢) السابق ٦٩٦/٣.

(٣) الأموال، لأبي عبيد القاسم بن سلام، ص ٢٤٩.

لا تتمنوا لقاء العدو وسلوا الله العافية»^(١)، ولذا لم يكن النبي ﷺ بذلك الحريص على خوضها فيما لو تم الوصول للغايات من طريق آخر. قبل الصلح الذي عقده النبي ﷺ مع مشركي مكة، كانت هناك محاولات سلمية للنبي ﷺ وأصحابه، حتى قال ﷺ "لبديل بن ورقاء الخزاعي" وقد جاء صادا للنبي ﷺ عن المسجد الحرام: «إنا لم نجئ لقتال أحد، ولكننا جئنا معتمرين، وإن قريشا قد نهكتهم الحرب وأضررت بهم، فإن شاؤوا ماددتهم مدة ويخلوا بيني وبين الناس، فإن أظهر؛ فإن شاؤوا أن يدخلوا فيما دخل فيه الناس فعلوا، وإلا فقد جموا. وإن هم أبوا، فوالذي نفسي بيده لأقاتلنهم على أمري هذا حتى تنفرد سالفتي، ولينفذن الله أمره».

وإن من ينظر في تفاصيل هذا الصلح؛ ليجد فيها حرصا نبويا على عدم الحرب، حتى عندما كتبوا معاهدة الصلح كان فيها بعض النصوص التي تقلل من شأن ومكانة النبي ﷺ، ومع ذلك رضي بها: (فقال النبي صلى الله عليه وسلم "بسم الله الرحمن الرحيم". قال سهيل: أما الرحمن فوالله ما أدري ما هو، ولكن اكتب باسمك اللهم كما كنت تكتب. فقال المسلمون: والله لا نكتبها إلا بسم الله الرحمن الرحيم، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "اكتب باسمك اللهم". ثم قال "هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله". فقال سهيل: والله لو كنا

(١) سبق تخريجه وهو في الصحيحين.

الحرب وأخلاقياتها في الإسلام _____ د. خالد بن محمد الشنير

نعلم أنك رسول الله ما صددناك عن البيت ولا قاتلناك، ولكن اكتب محمد بن عبد الله، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "والله إني لرسول الله وإن كذبتُموني. اكتب محمد بن عبد الله". قال الزهري وذلك لقوله "لا يسألوني خطة يعظمون بها حرمت الله إلا أعطيتهم إياها"^(١).

المبحث الثالث: جرائم الحرب والإبادة الجماعية والحماية للمدنيين

من أكثر ما يقلق الأنظمة الدولية المعاصرة ما نتج من جرائم حرب وإبادة جماعية للجنس البشري في كثير من الحروب. ونصت "اتفاقية منع جريمة الإبادة الجماعية" في مادتها الثانية إلى الأفعال التي يمكن أن نعتبر من قام بواحدة؛ أنه قام بإبادة جماعية، هي: قتل أعضاء من الجماعة.

إلحاق أذى جسدي أو روحي خطير بأعضاء من الجماعة.
إخضاع الجماعة عمدا لظروف معيشية يراد بها تدميرها كلياً أو جزئياً.

فرض تدابير تستهدف الحيلولة دون إنجاب الأطفال داخل الجماعة.

نقل أطفال من الجماعة عنوة إلى جماعة أخرى^(٢).

(١) صحيح البخاري (٢٥٨١).

(٢) راجع: الوثائق الدولية المعنية بحقوق الإنسان، محمود بسيوني ٢/ ١٠٠٩، معجم المصطلحات القانونية، هنري كابيتان، ترجمة منصور القاضي، مادة: إبادة الجنس.

هذا هو التصوّر القانوني في الأنظمة الدولية المعاصرة حول هذه النقطة، ولئن كان هذا التصور نجح في بعض الأحيان، فقد لاقى فشلا في أحيان أخرى. ونحن هنا لسنا بصدد مناقشة مصداقية تطبيق هذه القوانين، بقدر ما نريد تصوير المفاهيم، وربطها بالتعاليم الحربية التي أمر بها الإسلام.

المطلب الأول: التعاليم الإسلامية في منع الإبادة والإفساد

لا يمكن لأي باحث منصف في التاريخ الحربي للأمم إلا وأن يقف مُعجبا بتلك التعاليم الإسلامية التي وضعت -بشكل واضح- قوانين الحرب والسلام والعلاقات الدولية، وجعلت من الإسلام - وهو الدين المُتهم بأنه دين السيف- يحوي عددا من القوانين الإنسانية التي تحارب ما يُسمى بـ (جرائم الحرب وغيرها).

وإني لأعجب أشد العجب من تلك الحملة على تعاليم الإسلام وخاصة عندما ننظر في الحالة الحربية التي كانت عليها الدول قبل الإسلام، وكيف كانت الشعوب تباد ويُنكّل بها؛ حتى جاء الإسلام و "شرّع" قوانين ضد هذه التصرفات. لا نستطيع استثناء أي شعب من استعمال تلك الإبادات، وخاصة تلك الحروب الطاحنة

الحرب وأخلاقياتها في الإسلام _____ د. خالد بن محمد الشنير

التي كانت بين اليهود وغيرهم في دخول كنعان^(١)، أو بين الفرس والروم^(٢).

لقد كان للإسلام فضل السبق في التمييز بين المقاتلين وغيرهم من المدنيين الذين لا يقاتلون، وهو الأمر الذي تم تقنينه دوليا في القوانين الدولية الإنسانية.

فالنبي ﷺ الذي جعل القتال ضرورة عندما يمنع من نشر دينه هو الذي كان يوجه جيوشه بعبارات قليلا ما تجد مثلها في الحروب السابقة، بل لا تجد مثلها أصلا. فكان يوصيهم بقوله: «اغزوا باسم الله، في سبيل الله، قاتلوا من كفر بالله، اغزوا ولا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا وليدا [طفلا]»^(٣).

كما أن النبي ﷺ يؤكد على منع قتل الأطفال والشيوخ والنساء في المعارك، وقد روي عنه: «ولا تقتلوا شيخا فانيا، ولا طفلا، ولا صغيرا، ولا امرأة»^(٤)، بخلاف الجيوش الإسرائيلية - كما سنرى - وما صنعت بأطفال أعدائهم، ونسائهم وشيوخهم، بل كل نفس.

(١) راجع في نصوص التوراة: تثنية ٧: ٢، و ١٦: ٧، و ٢٠: ١٤-١٨، خروج ٣٤: ١٢-١٣، وغيرها كثير.

(٢) المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار (الخطط)، تقي الدين المقرئ ٧٦٢/٣. ط. مكتبة مدبولي.

(٣) صحيح مسلم (١٧٣١).

(٤) سنن أبي داود (٢٦١٤)، وضعفه الألباني في ضعيف الجامع (٣٢٧٠).

كان رسول الله ﷺ في غزوة، فرأى الناس مجتمعين على شيء، فبعث رجلاً، فقال: انظر علام اجتمع هؤلاء؟ فجاء، فقال: على امرأة قتيل، فقال ﷺ: «ما كانت هذه لتقاتل». قال وعلى المقدمة [للجيش] خالد بن الوليد، فبعث رجلاً فقال: «قل لخالد لا يقتلن امرأة ولا عسيفاً»^(١).

وروى ابن عمر أن امرأة وُجِدَت في بعض مغازي النبي صلى الله عليه وسلم مقتولة، فأنكر رسول الله صلى الله عليه وسلم قتل النساء والصبيان^(٢).

قال ابن عبد البر: (أجمع العلماء على القول بهذا الحديث ولم يختلفوا في شيء منه، فلا يجوز عندهم الغلول ولا الغدر ولا المثلة، ولا قتل الأطفال في دار الحرب)^(٣).

هكذا كانت تعاليم الإسلام الحربية حول هذه المسألة، والتي ما زالت حتى اليوم تواجه الأنظمة القانونية الدولية مشكلات في سبيل تطبيق النظام فيها على المخالفين من مجرمي الحرب. ولقد كان

(١) سنن أبي داود (٢٦٦٧)، مسند أحمد بن حنبل ٤٨٨/٣، وصححه ابن حبان في صحيحه: (٤٧٩١).

والعسيف هو الأجير، وقيل الشيخ الكبير، وقيل العبد. راجع النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير ٢٣٦/٣.

(٢) صحيح البخاري (٢٨٥١)، صحيح مسلم (١٧٤٤).

(٣) التمهيد لابن عبد البر ٢٣٣/٢٤.

الحرب وأخلاقياتها في الإسلام _____ د. خالد بن محمد الشنير

حال الفتوحات في الدولة الإسلامية الأولى مُطبّقا لهذه المبادئ بشكل تام، وكانوا على قدر كبير من الحرص على سلامة الشعوب. فعن الأسود بن سريع قال: أتيت رسول الله ﷺ وغزوت معه، فأصبت ظهرا، فقتل الناس يومئذ، حتى قتلوا الولدان - وقال مرة: الذرية - فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فقال: «ما بال أقوام جاوزهم القتل اليوم حتى قتلوا الذرية»، فقال رجل: يا رسول الله إنما هم أولاد المشركين، فقال: «ألا إن خياركم أبناء المشركين. ثم قال: ألا لا تقتلوا ذرية، ألا لا تقتلوا ذرية»^(١).

وهذا ما تمثله خلفاء رسول الله ﷺ، وأولهم أبو بكر الصديق، والذي كان يوصي قائد جيشه: (إني موصيك بعشر: لا تقتلن امرأة، ولا صبيا، ولا كبيرا هرمًا، ولا تقطعن شجرا مثمرا، ولا تخربن عامرا، ولا تعقرن شاة ولا بعيرا إلا لمأكله، ولا تحرقن نخلا ولا تفرقنه، ولا تغلل، ولا تجبن)^(٢).

لقد كانت هذه التعاليم واضحة تماما في أذهان المسلمين عند قتالهم لأي عدو لهم، وكما هو واضح من النصوص السابقة أنه عندما

(١) سنن النسائي الكبرى (٨٦٦)، مسند أحمد بن حنبل ٤٣٥/٣ واللفظ له، وصححه

الحاكم في المستدرک علی الصحیحین، ووافقه الذهبي (٢٥٦٦).

(٢) موطأ مالك (٩٦٥). وسند هذا الأثر ضعيف لإرساله، ولكن معناه روي من عدة

طرق. راجع: نيل الأوطار للشوكاني ٧٥/٨.

تحدث تجاوزات من أحد أفراد الجيش؛ فإن هذا يُعد خرقاً لأحكام الشرع الإسلامي، والذي جعل قواعد تُنظم ما يُمكن أن نطلق عليه: الحرب الأخلاقية.

يقول ابن تيمية - وهو الإمام الذي اشتهر بالجهاد في كثير من الميادين - في معرض بيانه لعدد من القواعد الحربية: (وإذا كان أصل القتال المشروع هو الجهاد، ومقصوده هو أن يكون الدين كله لله، وأن تكون كلمة الله هي العليا، فمن امتنع من هذا قوتل باتفاق المسلمين، وأما من لم يكن من أهل الممانعة والمقاتلة كالنساء والصبيان والراهب والشيخ الكبير والأعمى والزمن ونحوهم، فلا يقتل عند جمهور العلماء إلا أن يقاتل بقوله أو فعله، وإن كان بعضهم يرى إباحة قتل الجميع لمجرد الكفر إلا النساء والصبيان ... والأول هو الصواب، لأن القتال هو لمن يقاتلنا إذا أردنا إظهار دين الله ... وذلك أن الله تعالى أباح من قتل النفوس ما يُحتاج إليه في صلاح الخلق، كما قال تعالى: ﴿وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ﴾ البقرة: ٢١٧، أي أن القتل وإن كان فيه شر وفساد ففي فتنة الكفار من الشر والفساد ما هو أكبر منه.

فمن لم يمنع المسلمين من إقامة دين الله لم تكن مضرة كفره إلا على نفسه، ولهذا قال الفقهاء: إن الداعية إلى البدع المخالفة للكتاب والسنة يعاقب بما لا يعاقب به الساکت ... ولهذا أوجب الشريعة قتال الكفار ولم توجب قتل المقدور عليهم منهم، بل إذا أُسر

الحرب وأخلاقياتها في الإسلام _____ د. خالد بن محمد الشنير

الرجل منهم في القتال أو غير القتال - مثل أن تلقيه السفينة إلينا أو يضل الطريق أو يؤخذ بحيلة - فإنه يفعل فيه الإمام الأصلاح من قتله أو استعباده أو المن عليه أو مفاداته بمال أو نفس عند أكثر الفقهاء، كما دل عليه الكتاب والسنة^(١).

وهكذا تظهر النصوص أن جماعات من غير القادرين على القتال لا يجوز قتلهم، وأما من كان قادرا على القتال، فيجوز قتلهم، ولكن لا يجب. وفرق واضح بين الأمرين. وقليل جدا - ولا يكاد يُذكر - تلك الحالات التي قام المسلمون فيها بقتل الرجال بعد المعارك، وإنما كانوا يعملون بهم أحد الخيارات الإسلامية في الأسرى، كما سيأتي في المبحث الرابع.

المطلب الثاني: معارضات حول موقف الإسلام من جرائم الحرب والإبادات الجماعية:

بقيت هنا بعض التنبيهات التي لا بد من تناولها ونحن في مدارس علمية؛ وذلك لكوننا لا نجد لها إشارة في غالب الكتب المعاصرة التي تحدثت عن السلام والحرب في الإسلام. وهي بعض أحكام الحرب الإسلامية التي تُخالف التوجهات الدولية المعاصرة

(١) السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية، ابن تيمية (ضمن: مجموع فتاوى ابن تيمية ٣٥٥/٢٨).

"في صورتها النظرية"^(١). ونحن إذ نوردها هنا لا بد أن فتنبه إلى أمرين:

الأول: أن هذه النصوص هي جزء من دين الإسلام؛ ولا يمكن تجاهل الإشارة إليها، ما دام أنها موجودة بشكل واضح في نصوص كتابه المقدس.

ثانيا: أن هذه النصوص لم تعد مجهولة عند غير المسلمين، بل كثيرا ما تُثار الشبهات حولها، من دون أن يوجد في العديد من الأحيان من يجيب عنها، ونتيجة لذلك؛ تم توظيفها توظيفاً سيئاً ضد الإسلام، وكأنه لا يوجد أي تعاليم أخلاقية في الحرب الإسلامية. لذا تظهر أهمية الإشارة إليها وبيان مرادها وظروفها الزمانية والمكانية. ومن الخطأ التعامي عن ذلك، فهو ليس مُخففاً لوطأة الهجوم على الإسلام.

وهنا أقول: إن في بعض النصوص النبوية ما يمكن أن يُصنف تحت ما يُسمى في القانون الدولي الإنساني بـ (جرائم ضد الإنسانية)، وأضرب لذلك بمثالين:

(١) وقصدي بذلك، أن هناك قانوناً دولياً إنسانياً يتعلق بقضايا الحرب، ويوجد فيه الكثير من التشريعات المتعلقة بذلك، وخلاصته تحويه اتفاقيات جنيف الأربع. إلا أن حروب القرن الماضي وبدايات القرن الحالي أظهرت عدم الالتزام بهذه القوانين، وسقط في مخالفة تلك القوانين أكثر الدول مناداة لحماية حقوق الإنسان.

الحرب وأخلاقياتها في الإسلام _____ د. خالد بن محمد الشنير

المثال الأول: شن الهجمات ليلاً على الأعداء وفيهم النساء والأطفال
ما رواه "الصعب بن جثامة" رضي الله عنه قال: سئل رسول الله
صلى الله عليه وسلم عن أهل الدار من المشركين يُيْتُونَ، فيصيبون من
نسائهم وذرائعهم، فقال: «هم منهم»^(١).
والتبیت: أن يغار عليهم بالليل بحيث لا يعرف الرجل من
المرأة والصبي^(٢).

وهذا الحديث (أي حديث الصَّعب بن جثامة في الإغارة ليلاً)
إذا جُمع مع الأحاديث الأخرى السابقة والتي تُصرِّح بالنهي عن قتل
النساء والأطفال... اختلف العلماء في معناها والجمع بينها، كما
يُلَخِّص ذلك "ابن حجر"، فيقول: (كان الزهري إذا حدث بهذا
الحديث [أي حديث الصَّعب] قال: وأخبرني ابن كعب بن مالك عن
عمه، أن رسول الله ﷺ لما بعث إلى ابن أبي الحقيق نهى عن قتل
النساء والصبيان انتهى^(٣)... وكان الزهري أشار بذلك إلى نسخ "حديث
الصَّعب".

(١) البخاري (٢٨٥٠)، ومسلم (١٧٤٥).

(٢) شرح النووي على صحيح مسلم ٥٠/١٢.

(٣) والرواية كما رواها مالك بسنده: (نهى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - الذين
قتلوا ابن أبي الحقيق عن قتل النساء والولدان - قال - فكان رجل منهم يقول
برحت بنا امرأة ابن أبي الحقيق بالصباح فأرفع السيف عليها ثم أذكر نهى
رسول الله - ﷺ - فأكف ولولا ذلك استرحنا منها) الموطأ، للإمام مالك (٩٦٣).

وقال مالك والأوزاعي لا يجوز قتل النساء ولا الصبيان بحال، حتى لو تترس أهل الحرب بالنساء والصبيان، أو تحصنوا بحصن أو سفينة وجعلوا معهم النساء والصبيان، لم يجوز رميهم ولا تحريقهم... وفي سنن أبي داود^(١) فإنه قال في آخره: قال سفيان: قال الزهري: ثم نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد ذلك عن قتل النساء والصبيان... ويُحتمل في هذه التعدد.

والذي جنح إليه غيرهم الجمع بين الحديثين... وهو قول الشافعي والكوفيين. وقالوا: إذا قاتلت المرأة جاز قتلها. وقال ابن حبيب من المالكية: لا يجوز القصد إلى قتلها إذا قاتلت إلا إن باشرت القتل وقصدت إليه. قال: وكذلك الصبي المراهق.

ويؤيد قول الجمهور [حديث] "ما كانت هذه لتقاتل"^(٢)، فإن مفهومه أنها لو قاتلت لُقُتلت.

واتفق الجميع -كما نقل ابن بطال وغيره- على منع القصد إلى قتل النساء والولدان، أما النساء فلضعفهن، وأما الولدان فلقصورهم عن فعل الكفر^(٣).

ويلخص "الصنعاني" هذا الخلاف بقوله: (وقد اختلف العلماء

(١) سنن أبي داود (٢٦٧٢).

(٢) سبق تخريجه قريبا، وصححه ابن حبان.

(٣) فتح الباري شرح صحيح البخاري، ابن حجر ١٤٧/٦ - ١٤٨.

الحرب وأخلاقياتها في الإسلام _____ د. خالد بن محمد الشنير

في هذا؛ فذهب الشافعي وأبو حنيفة والجمهور إلى جواز قتل النساء والصبيان في البيات، عملاً برواية الصحيحين.

وقوله: "هم منهم" أي في إباحة القتل تبعاً لا قصداً، إذا لم يمكن انفصالهم عن يستحق القتل.

وذهب مالك والأوزاعي إلى أنه لا يجوز قتل النساء والصبيان بحال، حتى إذا تترس أهل الحرب بالنساء والصبيان، أو تحصنوا بحصن أو سفينة هما فيهما معهم، لم يجز قتالهم ولا تحريقهم^(١).

وخلاصة هذه المسألة: أن تشريعات الإسلام لا تُمانع إن احتاج المسلمون في قتالهم - أن يغيروا على غيرهم فلهم ذلك، فإن اضطروا إلى الإغارة ولم يجدوا طريقاً آخر يمنع أن يتضرر منها النساء والأطفال، فقد اختلف فيه العلماء، فبعضهم قال: لا بأس بذلك، ومنعه آخرون، وقالوا بنسخ هذا التشريع. فالمسألة محل اجتهاد بين العلماء^(٢).

وعلى ذلك؛ ففي الحروب المعاصرة يمنع الإسلام قصف المدنيين إن كان يمكن التفريق بينهم وبين الجيش، كما أنه لا مانع أن تدخل الدولة الإسلامية في اتفاقات دولية لمنع قصف أي مكان يوجد

(١) سبل السلام شرح بلوغ المرام، الصنعاني ٤/٤٩.

(٢) راجع توسعاً في ذلك في كتاب: أحكام الأسرى والسبائ في الحروب الإسلامية، ص ٢٩٩.

فيه المدنيون، إذ الفقه الإسلامي يتسع لهذا الرأي، والعهد الذي يُحقق مصلحة عامة لا مانع من الدخول فيه.

المثال الثاني: قتل الذكور من يهود بني قريظة^(١).

معروف لدى علماء التاريخ أن يهود بني قريظة كانوا فصيلاً من فصائل يهود المدينة المنورة، وبمجرد قدوم النبي ﷺ المدينة عقد بينه وبين اليهود الموجودين بها معاهدة تنظم الشأن العام الداخلي والخارجي لهذا البلد. وكان من بنود هذه المعاهدة:

١- التزام كل أبناء المدينة بما فيهم المسلمون واليهود بالمعايشة السلمية فيما بينهما، وعدم اعتداء أي فريق منهما على الآخر.

٢- الدفاع المشترك ضد أي اعتداء خارجي على المدينة .
وحدث في ٥ هـ / ٦٢٧ م .. أن مر المسلمون بظروف قاسية عندما تجمعت أكبر قوة معادية للمسلمين في ذلك الوقت للقضاء عليهم داخل المدينة، وأحاطت جيوش التحالف المشتركة بالمدينة في عشرة آلاف مقاتل، من مشركي قريش وأشجع وغطفان وبني سليم وأسد وفزارة .. على حين لم يزد عدد المسلمين على ثلاثة آلاف مقاتل، وكان المتوقع أن ينضم يهود بني قريظة إلى صفوف

(١) راجع: نبي الرحمة، محمد مسعد ياقوت، ص ١٦٧، وراجع في تفصيل الغزوة: السيرة النبوية، ابن هشام ١٩٢/٤ .

الحرب وأخلاقياتها في الإسلام _____ د. خالد بن محمد الشنير

المسلمين ضد القوات المحاصرة لحدود المدينة، بناءً على المعاهدة المبرمة بين الفريقين.. لكن الذي حدث هو عكس هذا، فقد فوجئ المسلمون بخيانة بني قريظة في أخطر أوقات محنتهم بانضمامهم لصف الأعداء، ولم يرعوا للجوار حقاً، ولا للعهود حرمة، بل كانوا يسعون من وراء انضمامهم هذا إلى صفوف القوات الغازية؛ التعجيل بالقضاء على المسلمين ودولتهم الناشئة!

أحدثت هذه الخيانة زلزالاً عنيفاً في نفوس المسلمين، وجرحاً عميقاً في وجدانهم، لاسيما بعد إعلان قريظة الانضمام إلى صفوف الغزاة... لدرجة أن الرسول ﷺ حرص أول الأمر على كتمان الخبر على الشعب لما كان يخشى من وقوعه على نفوس الجنود. وبمجرد أن انتهى إلى سماعه ﷺ النبأ، أرسل وفداً دبلوماسياً مكوناً من القادة الأفاضل سعد بن معاذ (قائد الأوس)، وسعد بن عباد (قائد الخزرج)، وعبد الله بن رواحة، وخوات بن جبير ﷺ ليدكروا القوم بما بينهم وبين المسلمين من عقود وعهود، ويحذروهم مغبة ما هم مقدمون عليه، ولكن دون جدوى!

وبعد أن ولّى المشركون المحتلون وحلفاؤهم الأدبار، يحملون معهم الهزيمة والإخفاق، وفشلت محاولاتهم لاقتحام المدينة المنية. رجع المقاتلون المسلمون إلى بيوتهم بالمدينة يستريحون من هذه الغمة، ويلتقطون أنفاسهم بعد فزع وقلق نفسي مريع دام شهراً كاملاً. وبعد ذلك تفرغ النبي ﷺ وأصحابه لمحاسبة الخيانة العظمى

للدولة، فنادى النبي ﷺ في المسلمين «ألا لا يصلين أحد العصر إلا في بني قريظة»^(١).

وحاصر المسلمون بني قريظة شهراً تقريباً، ولما طال عليهم الحصار... ورفض النبي ﷺ إلا أن يستسلموا دون قيد أو شرط استسلم بنو قريظة، ونزلوا على حكم رسول الله ﷺ، فوكل ﷺ الحكم فيهم إلى سعد بن معاذ -قائد الأوس- وفي اختياره دلالة على حكمة النبي ﷺ وبعد نظره، وإدراكه لنفسيات يهود قريظة، لأن سعداً كان حليف بني قريظة في الجاهلية، وقد ارتاح اليهود لهذا الاختيار، وظنوا أن الرجل قد يحاييهم في حكمه، لكن سعداً نظر إلى الموقف من جميع جوانبه، وقدره تقدير من عاش أحداثه وظروفه.

وبعد أن أخذ سعد ﷺ الموائيق على الطرفين أن يرضى كل منهما بحكمه، أعلن حكمه بالإعدام على الخونة لاتفاقية حماية المدينة، قائلاً: «فإني أحكم أن تقتل المقاتلة [الذكور من الرجال]، وأن تسبى الذرية. قال النبي ﷺ: «لقد حكمت فيهم بحكم الملك»، أو «بحكم الله عز وجل»^(٢).

بسبب هذا الموقف أصبح البعض يُشكك في أخلاقية الحرب الإسلامية، ونحن إذ نورده هنا ليس إلا لمناقشة ذلك، وبيان سبب

(١) صحيح البخاري (٩٠٤).

(٢) صحيح البخاري (٢٨٧٨)، صحيح مسلم (١٧٦٩).

الحرب وأخلاقياتها في الإسلام _____ د. خالد بن محمد الشنير

فعل النبي ﷺ لهذا:

أولاً: ماذا لو أن نتيجة غزوة الأحزاب تمت حسبما كان يخطط لها بنو قريظة وأحزابهم؟ ألم تكن هي الإبادة التامة للمسلمين أجمعين. لقد ظن اليهود أن هذا هو طريق تدمير الكيان الإسلامي تدميراً كاملاً، واستئصال شأفة المسلمين استئصالاً كلياً.

ثانياً: إن قانون الدول المعاصرة يحكم بالإعدام على من يخون وطنه ويقيم اتصالات مع العدو أو يتجسس لحسابه، ولو درس الذين يطعنون في حكم سعد على بني قريظة القوانين المعاصرة دراسة نافذة وطبقوها على قضية بني قريظة لرأوا أن قوانين العصر الحديث والدول المتقدمة لا تختلف في شيء عما أصدره سعد بن معاذ.

ثالثاً: أن هذه العقوبة الجماعية الفريدة التي سببها الخيانة العظمى من قريظة؛ لم تكن مستغربة في أذهان اليهود، والذين يقرؤون في التوراة عن "تشريعات" الحرب الإسرائيلية التي تحت على قتل الرجال والنساء والأطفال، وأحياناً حيوانات الأعداء.

رابعاً: كان هناك يهود آخرون خانوا معاهداتهم مع النبي ﷺ، إذ كانت في المدينة طوائف أخرى، منها: قينقاع، والنضير. فالأولون قد أبدوا البغضاء وإثارة الفتن في المدينة، الأمر الذي بلغ ببعضهم أن يعمل على كشف سوء امرأة مسلمة في السوق، الذي أدى لوجود مقتلة بينهم وبين المسلمين داخل السوق، مع ما أبدوه من إرهابات وخيانة المعاهدة التي أبرموها مع النبي ﷺ، الأمر الذي أدى إلى

إجلالهم عن المدينة^(١).

وقد حاول بعض المستشرقين تحليل ذلك بمحاولة الإكراه الديني لبني قينقاع، وفي هذا يقول المستشرق الإسرائيلي "شالوم زاوي" بأن بني قينقاع قد حكم عليهم بالقتل لعدم دخولهم الإسلام، وأنقذهم في ذلك عبد الله بن أبي، الذي لم يكن مؤمناً أصلاً^(٢). ولم يتب هذا المستشرق إلى التناقض الذي يحمله هذا الرأي مع استبقاء النبي ﷺ لسائر طوائف اليهود بعد طرد بني قينقاع^(٣).

كما أن الطائفة الأخرى "بني النضير" تأمروا على قتل الرسول ﷺ وتحالفوا مع بعض المنافقين على المناجزة، دون أن تتيح لهم الفرصة طريقاً يصلون منه إلى التنفيذ، ولهذه الخيانة حاصرهم المسلمون (حتى نزلوا على الجلاء، وعلى أن لهم ما أقلت الإبل، إلا السلاح، فجاءت بنو النضير واحتملوا ما أقلت الإبل من أمتعتهم وأبواب بيوتهم وخشبها، فكانوا يخربون بيوتهم فيهدمونها، فيحملون ما

(١) راجع: السيرة النبوية لابن هشام ٣/٣١٣.

(٢) مصادر يهودية في القرآن، شالوم زاوي، ص ١٧ (بالعبرية)، نقلاً عن: الاستشراق

الإسرائيلي في المصادر العبرية، محمد جلاء إدريس، ص ٢١١.

(٣) لمناقشة هذا الرأي، راجع: المجتمع المدني في عهد النبوة: خصائصه وتنظيماته،

أكرم ضياء العمري، ص ١٣٧، الحرب في الإسلام وفي المجتمع الدولي المعاصر،

توفيق وهبة، ص ٥٧.

الحرب وأخلاقياتها في الإسلام _____ د. خالد بن محمد الشنير

وافقهم من خشبها^(١).

أما "قريظة" الذين سلّوا السيوف، ووقفوا في صفوف العدو، وأوقعوا الهلع في قلوبٍ يحيط بها الروع من كل ناحية، كان حسابهم أشد، لأن جريمتهم كانت أنكى وأشد؛ حيث كانت تتعلق بإهلاك كل أفراد الدولة الإسلامية، ناهيك أن لهم عبرة سابقة بمن خان قبلهم من اليهود، كما أن النبي ﷺ جدد العهد والمعاهدة معهم قبيل إجلاء بني النضير.

لقد كان في إمكان النبي صلى الله عليه وسلم أن يُييد جميع طوائف اليهود نظرا لما قاموا به من خلع المعاهدات، ولكن لم يفعل، وذلك لما فيه من نبل الطباع، إلا أن جريمة بني قريظة كانت لا تغفر، وقد حكم فيها "سعد ابن معاذ" بناء على موافقتهم على حكمه.

هذه النماذج تؤكد أن عقوبة بني قريظة كانت أحادية دون سائر التعاملات مع قبائل اليهود، ولم تكن تمثل اتجاهها عاما في تشريعات الإسلام، بل كانت استثناء من أحكام الحروب الإسلامية، والتي لا نسمع فيها القتل إلا نادرا.

(١) مصنف عبد الرزاق، (٩٧٣٣)، ورواية أخرى في: السيرة النبوية، ابن هشام، ١٤٣/٤، وراجع في الجمع بين الروايات: المجتمع المدني في عهد النبوة: خصائصه وتنظيماته، أكرم ضياء العمري، ص ١٤٥ .

المبحث الرابع: أسرى الحرب

ثمة ارتباط بين المبحث السابق، وبين هذا المبحث، من جهة أن كثيرا مما تم تطبيقه في المبحث السابق هو تطبيق على أسرى الحرب. لكن في هذا المبحث، سيكون الحديث حول مفهوم أدق لهذا المعنى، والمتعلق بالحديث المباشر عن الأسرى.

من المعلوم أن الحرب في كل العصور، يكون فيها أسرى، وهم المحاربون المنهزمون أو المستسلمون. وقد يلحق بهم الأبناء والزوجات وذووهم.

الملفت للنظر أن هناك نصوصا إسلامية فصلت في أحكام الأسرى، ووضعت لها قواعد متينة تحكمها، لذا كان الأسير عند المسلمين يختلف عن غيرهم. فمبادئ الإسلام تدعو إلى الرفق بالأسرى، وتوفير الطعام والشراب والكساء لهم، واحترام آدميتهم، والإحسان إليهم^(١).

وإن من أبلغ ما يدل على ذلك أن القرآن الكريم مع حثه المسلمين للجهاد؛ إلا أنه مع ذلك يؤكد لهم أن من صفات المؤمنين الصادقين عنايتهم بالأسير المحتاج كعنايتهم بالفقير واليتيم:

(١) راجع: أحكام الأسرى والسبايا في الحروب الإسلامية، ص ١٤٧.

الحرب وأخلاقياتها في الإسلام _____ د. خالد بن محمد الشنير

﴿وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حَيْثُ مَسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾ (٨) إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لَوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكْرًا ﴿الإنسان: ٨ - ٩﴾

قال عزيز بن عمير: كنت في الأسارى يوم معركة بدر، فقال رسول الله ﷺ: «استوصوا بالأسارى خيراً»، وكنت في نفر من الأنصار، وكانوا إذا قدموا غداءهم وعشاءهم أكلوا التمر وأطعموني الخبز، بوصية رسول الله ﷺ إياهم^(١).

ولما فتح رسول الله ﷺ خيبر (مدينة اليهود) أتى بصفية بنت حبي ومعه ابنة عم لها، جاء بهما بلال فمر بهما على قتلى يهود... فقال نبي الإسلام ﷺ لبلال: «أُنْزِعَتِ الرَّحْمَةُ مِنْ قَلْبِكَ حِينَ تَمَرُ بِالْمَرَاتِينَ عَلَى قَتْلَاهُمَا!»^(٢).

بل في أحلك الظروف عندما حُكِمَ على طائفة بني قريظة بالقتل؛ لم ينس رسول الله ﷺ الإحسان للأسرى في ذلك، وقال لأصحابه: «أحسنوا إيسارهم وقيلوهم واسقوهم حتى ييعدوا... لا تجمعوا عليهم حر الشمس وحر السلاح - وكان يوماً صائفاً - فقيلوهم وأسقوهم وأطعموهم»^(٣).

(١) المعجم الكبير (٩٧٧). قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٨٦/٦: وإسناده حسن.

(٢) الإصابة في تمييز الصحابة، لابن حجر ٧٣٩/٧، من رواية ابن إسحاق.

(٣) كتاب المغازي، محمد بن عمر الواقدي ٢١٧/٢. ومعلوم أن الواقدي إمام في المغازي والسير، وهو شيخ المؤرخ المشهور ابن سعد (صاحب الطبقات الكبرى)،

وهو موقف ليس بمُستغرب، ولا يقل قائل بأنه من قبيل التناقض! كلا، فقد كان نبي الإسلام ﷺ يطبق القانون الذي يستحقه هؤلاء جراء خيانتهم العظمى، ويُطبق القانون الذي يستحقه الأسير وغيره من الرحمة والعناية.

ويقول عمران بن حصين: كانت ثقيف حلفاء لبني عقيـل فأسـرت ثـقيـف رجـلين من أصحاب رسول الله ﷺ، وأسر أصحاب رسول الله ﷺ رجلا من بني عـقـيل، وأصابوا معه العـضـباء ... فنـاداه، فقـال: يا مـحـمـد يا مـحـمـد، وکان رسول الله ﷺ رقيقا، فرجع إليه، فقـال: «ما شأنك؟» قال إني مسلم، قال: «لو قـلتـها وأنت تملك أمرک أفلحت کل الفلاح»، ثم انصرف فنـاداه، فقـال: يا مـحـمـد يا مـحـمـد، فأـتاه، فقـال: «ما شأنک؟»، قال: إني جائع فأطعمني وظمآن فاسقيني، قال: «هذه حاجتک»^(١).

ولكنه عند عدد من أئمة الحديث يُعد من المتروكين، وإن وثقه بعضهم، إلا أن هؤلاء الموثقين لا يرقون في الصناعة الحديثية لدرجة علم من ضعفه. وعليه فلا يُحتج بحديثه في الأحكام، وإن كان إماما في نقل السير والمغازي. راجع أقوال العلماء حوله في: تهذيب التهذيب، ابن حجر العسقلاني ٣٢٤/٩.

(١) صحيح مسلم (١٦٤١).

الحرب وأخلاقياتها في الإسلام _____ د. خالد بن محمد الشنير

لقد كانت هذه المعاملات للأسرى أسباباً لهداية بعض المشركين للإسلام، فقد (بعث رسول الله ﷺ خيلاً قبيل نجد فجاءت برجل من بني حنيفة يقال له ثمامة بن أثال سيد أهل اليمامة، فربطوه بسارية من سواري المسجد، فخرج إليه رسول الله ﷺ فقال: «ماذا عندك يا ثمامة؟» فقال: عندي يا محمد خير، إن تقتل تقتل ذا دم، وإن تُنعم؛ تُنعم على شاكِر، وإن كنت تريد المال فسل تُعط منه ما شئت، [وكرر رسول الله ﷺ هذا السؤال لثمامة ثلاث مرات في ثلاثة أيام]، فقال رسول الله ﷺ: «أطلقوا ثمامة»، فانطلق إلى نخل قريب من المسجد فاغتسل، ثم دخل المسجد، فقال أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله. يا محمد والله ما كان على الأرض وجه أبغض إليّ من وجهك، فقد أصبح وجهك أحب الوجوه كلها إليّ، والله ما كان من دين أبغض إليّ من دينك، فأصبح دينك أحب الدين كله إليّ، والله ما كان من بلد أبغض إليّ من بلدك، فأصبح بلدك أحب البلاد كلها إليّ...»^(١).

والسؤال المهم هنا: مالذي دفع بهذا الرجل ذي المنزلة العالية في قومه إلى أن يتنازل عن دينه، ثم يحسن إسلامه بعد ذلك؟

(١) صحيح البخاري (٤١١٤)، صحيح مسلم (١٧٦٣).

لا شك أن هذا يرجع إلى حسن المعاملة مع الأسرى والسجناء، وهو ما لم يكن معهودا في ثقافة تلك الأزمان، وكذا لما رأى من حسن خلق هذا النبي معه ومع أصحابه ﷺ، الأمر الذي بدد الشبه والأكاذيب التي كانت تُثار على الإسلام عند قبائل العرب. يروي أهل السير أن النبي ﷺ لما رأى ثمامة قال لأصحابه: «هذا ثمامة بن أثال الحنفي، أحسنوا إسهاره. ورجع رسول الله ﷺ إلى أهله فقال: اجمعوا ما كان عندكم من طعام فابعثوا به إليه، وأمر بلقحته [ناقة ذات لبن] أن يُغذى عليه بها ويراح»^(١). أي يشرب صباحا ومساء.

وأحكام الأسرى في الإسلام جاءت بالتفصيل، ويمكن إيجازها لضيق المقام كالتالي^(٢):

أ- لو أن المسلمين أخذوا أسرى من أهل الحرب فأرادوا قتلهم، فقال رجلٌ منهم: أنا مسلمٌ، فلا يقتل حتى يسأله عن الإسلام، فإن وصفه لهم فهو مسلمٌ، وإن أبى أن يصفه؛ فإنه ينبغي

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٥١/٦ .

(٢) راجع للتوسع: الموسوعة الفقهية، مادة: أسرى، وأيضا: أحكام الأسرى والسبايا في

الحروب الإسلامية، ص ١٨٤ .

الحرب وأخلاقياتها في الإسلام _____ د. خالد بن محمد الشنير

للمسلمين أن يصفوه له، ثم يقولوا له: هل أنت على هذا؟ فإن قال: نعم، فهو مسلمٌ، ولو قال: لست بمسلمٍ ولكن ادعوني إلى الإسلام حتى أسلم لم يحلّ قتله.

ب- اتفق الفقهاء على أنه يجوز للإمام أن يضع الجزية في رقاب الأسرى.

ج- أن الأسير الحربى الذي أعلن إسلامه قبل القسمة للغنائم، لا يحق للإمام قتله. كما أنه لا يجوز استرقاقه أيضا إن أعلن الإسلام قبل قسمة الغنائم.

د- يتفق الفقهاء على أن الأصل في السبايا من النساء والأطفال أنهم لا يقتلون، وقد جاءت النصوص الإسلامية المتكاثرة بمنع ذلك، وقد سبق تفصيلها في المبحث السابق.

هـ- تخيير حاكم المسلمين في الرجال البالغين [غير الأطفال والنساء والشيوخ] من أسرى الكفار، بين أربع خيارات؛ الأول: قتلهم، الثاني: استرقاقهم، الثالث: المنّ عليهم والعفو عنهم، الرابع: مفاداتهم بمالٍ أو نفسٍ أو بمبادلة أسرى أو غير ذلك.

و- يرى غالب الفقهاء تحريم قتل الأسير بعد المعركة.

ونلاحظ أن فتوحات المسلمين كانت واسعة جدا، إذ بلغوا مشارق الأرض ومغاربها، ومع كثرة الكتابات التي دونت تاريخهم؛

إلا أننا لا نجد إلا في أحوال نادرة جداً قيامهم بقتل الأسرى، وإن حصل ذلك فهو في حالات محددة، كانت لها ظروفها الخاصة. لذا نجد في الإسلام أربع خيارات للأسرى من الرجال، وجميعها طبقه المسلمون في حروبهم. وأما النساء والأطفال فكما مر معنا؛ لا يجوز قتلهم عموماً، بل إن المسلمين كانوا يُحسنون إليهم، وفي ذلك يقول ابن تيمية: (وكذلك السبي الذي بأيدينا من المسيحيين يعلم كل أحد إحساننا ورحمتنا ورأفتنا بهم، كما أوصانا خاتم المرسلين ﷺ حيث قال في آخر حياته: «الصلاة وما ملكت أيمانكم»^(١)، قال الله تعالى في كتابه: ﴿وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حَيْثُ مَسْكِنًا وَيَتِمَّ وَأَسِيرًا﴾ الإنسان: ٨)^(٢).

كما من الواضح الاهتمام الدولي المعاصر بأسرى الحرب، وتؤكد "اتفاقية جنيف الثالثة" المتعلقة بأسرى الحرب على عدم استجواب الأسرى بشكل متعسف وقسري، ففي المادة (١٧): (لا يجوز ممارسة أي تعذيب بدني أو معنوي أو أي إكراه على أسرى

(١) مسند أحمد بن حنبل ١١٧/٣، سنن ابن ماجه (١٦٢٥)، وصححه الألباني في

إرواء الغليل (٢١٧٨).

(٢) مجموع الفتاوى، ابن تيمية ٦١٨/٢٨.

الحرب وأخلاقياتها في الإسلام _____ د. خالد بن محمد الشنير

الحرب لاستخلاص معلومات منهم من أي نوع. ولا يجوز تهديد أسرى الحرب الذين يرفضون الإجابة، أو سبهم، أو تعريضهم لأي إزعاج أو إححاف^(١).

ونذكر هنا قصة عن نبي الإسلام ﷺ، تبين امتناعه من استعمال الأسلوب العنيف مع الأسرى، إذ لما نزل أصحابه أرض معركة بدر وورد عليهم رواة الماء من قريش وفيهم غلام أسود لبني الحجاج فأخذوه، فكان أصحاب رسول الله ﷺ يسألونه عن قائد غير قريش: أبي سفيان وأصحابه؟ فيقول: ما لي علم بأبي سفيان، ولكن هذا أبو جهل وعتبة وشيبة وأمّية بن خلف، فإذا قال ذلك ضربوه، فقال: نعم، أنا أخبركم؛ هذا أبو سفيان، فإذا تركوه فسألوه، فقال: ما لي بأبي سفيان علم، ولكن هذا أبو جهل وعتبة وشيبة وأمّية بن خلف في الناس، فإذا قال هذا أيضا ضربوه، ورسول الله صلى الله عليه وسلم قائم يصلي، فلما رأى ذلك انصرف وقال: (والذي نفسي بيده لتضربوه إذا صدقكم، وتتركوه إذا كذبكم)^(٢).

(١) راجع أيضا كتاب: ضوابط تحكم خوض الحرب، فريتس كالسهوفن، نشر: اللجنة

الدولية للصليب الأحمر، ص ٦٨.

(٢) صحيح مسلم (١٧٧٩).

خاتمة البحث:

- الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله. وبعد:
- في ختام هذا البحث، يسرني أن أخص للقارئ أهم ما توصلت إليه من أهم النتائج والتوصيات:
- لا يمكن بحال من الأحوال القول بأن الإسلام دين لم يستعمل الحرب، إذ هذا الأمر موجود في تعاليمه المتعددة، لكنه لم يكن يستعمل السيف لإكراه الناس على الدين، وهذا فرق واضح.
 - من الأخطاء المنتشرة أن الذين تحدثوا عن انتشار الإسلام، لم يجدوا فيه إلا الحرب، وأهملوا جميع جوانبه الحضارية والروحية الأخرى، إذ هي الدافع الأكبر لانتشاره.
 - لقد أصبح الدراسات حول الإسلام وسيفه أكثر نضجا عنه في القرون السابقة، وأصبح كثير من الغربيين والشرقيين يعترفون بجاذبية الإسلام وقوة هيمنته الفكرية.
 - هناك جدل في مفهوم وحقيقة الحرب الإسلامية، هل هي مجرد حرب دفاعية عندما يعتدي على المسلمين أحد، أم هي هجومية، وهو الرأي الأكثر رواجاً عند الفقهاء.
 - هناك إشكال في توضيح المراد بالحرب الهجومية، إذ

الحرب وأخلاقياتها في الإسلام _____ د. خالد بن محمد الشنير

البعض يجعلها ضد من وقف في طريق المسلمين عندما ينشرون الإسلام، والبعض يجعلها أكثر من ذلك، إذ تكون ضد كل من وقف أمام فرض الهيمنة السياسية الإسلامية على الأراضي المفتوحة.

- عندما شرع الإسلام القتال؛ فإنه وضع عليه من القيود التي تجعل منه هدفا ساميا في ذاته، وجعل من أهم تلك الأهداف أن هذه الحرب حالة ضرورة، وأن يكون المجاهد خارجا في سبيل الله تعالى، مريدا نشر دين الإسلام لإنقاذ غير المسلمين.

- جاءت الشريعة الإسلامية بكثير من التعاليم للحياة العامة والخاصة، ولقد كان للسياسة الحربية نصيب من ذلك، فقد جاء تقنين الحرب في عدد من النصوص الإسلامية.

- مما يثبت أن الفتوحات الإسلامية لم يكن من أهدافها الإكراه الديني ولا الاجتياح البربري؛ تلك الخيارات المتعددة التي يقدمها المسلمون قبل فتوحاتهم للدول الأخرى.

- من أهم وأعظم الخيارات الحربية التي يقدمها المسلمون خيار الدخول في الإسلام، وهو يضمن لأفراد الشعوب المفتوحة البقاء على ما كانوا عليه تماما قبل أن يُسلموا، وبذلك يكونون مواطنين مسلمين لهم كامل الحقوق.

- لكون الإسلام يسعى لعدم الإكراه الديني، فإنه يضع خيار دفع الجزية عندما ترفض الشعوب الدخول في الإسلام، وبيقون بذلك على ما كانوا عليه، ويكونون مواطنين داخل الدولة الإسلامية التي تكفل الدفاع عنهم وعن حقوقهم.
 - التشريعات الإسلامية الحربية توضح بشكل واضح تماماً تحريم قتل غير القادرين على القتال من صفوف الأعداء، ولذا نجد فيها تحريم قتل النساء والأطفال والشيوخ والعباد.
 - الإسلام لم يضع خياراً واحداً لأسرى الحرب، بل جعلهم تحت المصلحة: إما إطلاق سراحهم بلا مقابل، أو بمقابل، أو يُقتل به، أو يُقتلون. وهي حالة نادرة جداً في حروب المسلمين، لم تُطبق إلا على أعتى أعداء الإسلام.
 - توصي أن تعمل دراسات الأديان على وجود مقارنات علمية تتحدث عن جوانب الحياة المعاصرة، كقضايا السلام والحرب وغيرها من القضايا التي تُهم الرجل العادي، وليس المتدين فقط.
 - توصي الدراسة أن يكون هناك دراسات حول الحرب في الديانة اليهودية والنصرانية، عبر نصوصها الدينية، وتطبيقاتها العملية.
- والله أعلم.